إسحاق الشيخ يعقوب

هكذا تكلّمت المعتزلة عقلاً



الفارابي

هكذا تكلمت المعتزلة عقلاً



إسحاق الشيخ يعقوب

هكذا تكلمت المعتزلة عقلاً

دار الفارابي

الكتاب: هكذا تكلمت المعتزلة عقلاً
المؤلف: إسحاق الشيخ يعقوب
الغلاف: فارس غصوب

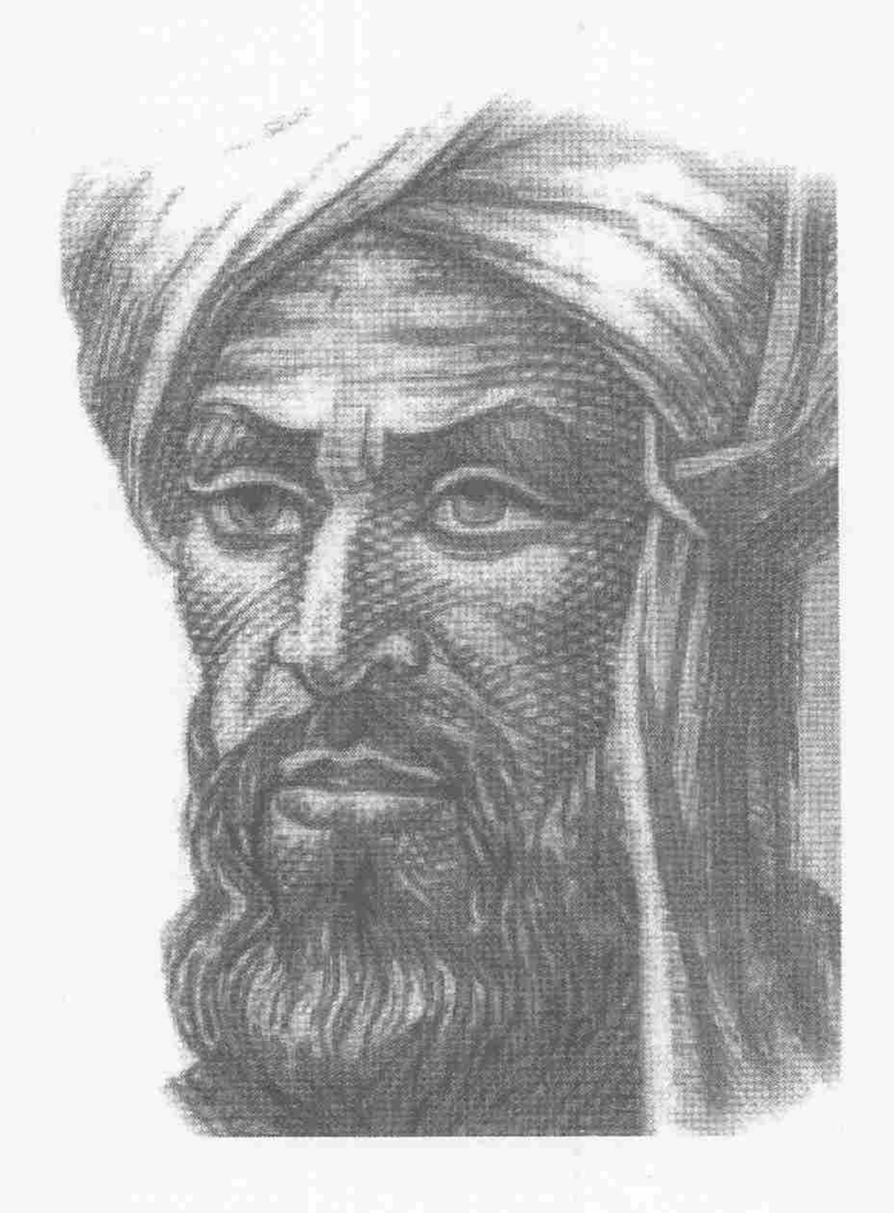
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461 (01) - فاكس: 307775 (01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تموز 2013
ISBN: 978-9953-71-986-3

الإهداء

إلى العشرة الأوائل المبشرين بالعدالة الاجتماعية في المملكة العربية السعودية: عبدالعزيز السنيد ويوسف الشيخ وعبدالعزيز المعمر وعبدالرحمن البهيجان وسيد علي العوامي وناصر السعيد ودرع عبدالله الدوسري وصالح الزيد وعبدالله هاشم وعلي العبدلي، الذين تنادوا عقلاً يسارياً مضيئاً في وعي الحركة الوطنية والعمالية منذ الخمسينيات، وتركوا بصماتهم التنويرية على أرض الوطن تتجدد في نضالات الأجيال المقبلة من أجل وطن جميل مقبل...

إليهم أهدي كتابي هذا ذاكرة عقل في ذاكرة عقولهم الفكرية التنويرية التاريخية، التي أزهرت على أرض الوطن نوراً على نور في قلب الظلام!!



شيء من العرفان بالجميل!!

وكانت فكرة تدور في رأسي أن أضع شيئاً مختلفاً عن المعتزلة: فهو لم يكن سرداً لما دوّن كثيراً عن المعتزلة في حديث الكتب وقديمها.. وإنما استنباط الأفكار وإدارتها إلى أفكار في أقوال المعتزلة عبر ما استنبطه فكراً في أفكارها ومن أفكارها!!

قلت يوماً لرائد الثقافة اللبنانية التنويرية للحبيب الصادق (الأستاذ حبيب صادق) لمّا سألني قائلاً: ما لديك من جديد.. قلت كتابة بعض الأفكار التي تدور في الذهن عن «المعتزلة» وأنا في صدد التزود من بعض المراجع في هذا الخصوص. تطارفت عيناه ولمع بريقهما وكأنه يشد على ما يدور في ذهني من أن أضع شيئاً عن المعتزلة... وتناهض متثانياً في شموخه من على كرسيه وعاد إليّ بقائمة واسعة من عناوين أهم ما كتب عن المعتزلة، وكان ذلك ما شدّ عزيمتي وأثار همتي لاستقصاء ما يمكن استقصاؤه بحثاً عن أول فرقة في الإسلام استفاضت عقلاً موضوعياً متجاوزة طوباوية النقل ومثالية التأمل!!

وكنت ألج مكتبة بعد مكتبة في شارع الحمراء في بيروت بحثاً عن كتب المعتزلة وفق «قائمة» الأستاذ حبيب صادق.. وبعد أن لملمت منها ما لملمت... حملت أسفار كتبي عائداً بها إلى البحرين..

وقد غطست فيها عقلاً حتى أخمص عقلي أتأملها وأقلّبها رأساً على عقب كتاباً.. كتاباً.. حتى فاضت بي عقلاً معتزلياً وفضت بها عقلاً يسارياً يتأولها فكرة فكرة ويطارحها العقل بالعقل...

فكان هذا الذي بين أيديكم من كتاب...

ولا يسعني في هذا المجال ومؤلف (هكذا تكلمت المعتزلة عقلاً) يتماثل إلى النور.. إلا أن أبدي جزيل شكري وعرفان امتناني للأستاذ حبيب صادق، الذي ترسّل الفكرة في النفس فأثار الهمة وأغاثني بمصادر أفكارها بهمته الثقافية المعهودة وسجية بساطته وإنسانيته الودودة، التي ما وهنت يوماً ولا تقاعس عن بذل كل ما هو جميل وثقافي للإنسان في كل مكان!!

وشيء من الشكر أيضاً إلى الأصدقاء... الذين كانوا بين فترة وفترة يهاتفونني قائلين: ماذا صنعت بالمعتزلة ومتى يخرج الكتاب إلى النور؟ وكان في ذلك ما يثير همتي ويجدد نشاطي.. كما أخص بالشكر ابني (ثابت) الذي كان عوناً لي في البحث عن مصادر المعتزلة وتزويدي بها!!

مدخل: ما العقل؟!

العقل دهشة حركة دؤوبة الحركة في دهشة حركة تنوع وتعدد وتجدد وتبدل وتغير ظواهر الحياة في الطبيعة والفكر والمجتمع.. وهو حركة مادية وفكرية عاقلة في حركة مادية وفكرية عقل الحياة!!

فالعقل هو ملكة الإنسان التي يستدل ويستنتج بها الأشياء المادية والفكرية في الحياة والتنقيب في ظواهرها وجواهرها وتقصي حركتها في بحث شامل للوقوف على أسرار حركتها وتحسس أحاسيسها المادية والفكرية.. وترى الموسوعة الفلسفية أن «العقل هو مقولات الوحدة والتعدد والسببية والإمكان والضرورة وغيرها. وهو يُضفي شكلاً على المضامين الحسية، ومن ثم يميز الأشياء - لا على ما هي عليه - وإنما على ما تظهر عليه. ومزيد من حركة الإدراك ممكن بمساعدة الفكر والذهن الإنساني في محاولته إدراك موضوعات هذه الأفكار حيث يصل إلى تناقضات لا حل لها».

وعندما يتعذر تحديد اكتشاف الأشياء بالعقل (النظري) يتم اللجوء إلى العقل (العملي)، إلا أن النظرة الكلية إلى الكون وتجليات ظواهرها الماورائية لا مكان لها إلا بالعقل النظري وليس العقل العملي.. فالعقل النظري... نظري الإرادة خلاف العقل العملي... الذي هو عملي

الإرادة!! العقل النظري مطلق الإرادة والعقل العملي نسبي الإرادة.. إلا أن العقل النظري المطلق يتكون من ملايين الجزئيات من العقل العملي النسبي من واقع أن العالم في أزل وحدته المادية الجدلية؟!

إن العقل ملكة التفكير في إدراك الشيء وهو «يشكل قوانين الفكر الضرورية الكلية». ويعتقد هيغل بوجود عقل كلي واحد وأن التاريخ ليس إلا معرض تجلي هذا العقل الواحد.. وما يعني بالعقل الكلي هو (الله) وهو المنظم لكل العقول وموجهها؛ وكل العقول خاضعة لإرادة العقل الكلي... فالعقل الكلي مطلق الكلية في الهيمنة على العقول البشرية، لكون العقل الكلي عقلاً مطلقاً، وحقيقة المطلق في حقيقة إجرائه النسبية فيما هو مادي وما هو فكري في الحياة...

والعقل عقلان: عقل نظري وعقل عملي، يعرّفهما الفارابي قائلاً: «العقل النظري هو قوة يحصل لنا بها بالطبع لا ببحث ولا بقياس العلم اليقين بالمقدمات الكلية الضرورية التي هي مبادئ العلوم وذلك مثل علمنا أن الكل أعظم من جزئه وأن المقادير المساوية لمقدار واحد متساوية وأشباه هذه المقدمات.. وهذه هي التي منها نبتدئ فنصير إلى علم سائر الموجودات النظرية التي شأنها أن تكون موجودة... لا بصنع الإنسان.. وهذا العقل قد يكون بالقوة عندما لا تكون هذه الأوائل حاصلة له فإذا حصلت له صار عقلاً بالفعل وقوي استعداده لاستنباط ما بقي. وهذه القوة لا يمكن أن يقع لها خطأ فيما يحصل لها بل جميع ما يقع لها من العلوم صادق يعني لا يمكن غيره.. أما العقل العملي فهو

قوة بها يحصل الإنسان، عن كثرة تجارب الأمور وعن طول مشاهدة الأشياء المحسوبة، مقدمات يمكن بها الوقوف على ما ينبغي أن يؤثر أو يجتنب شيئاً من الأمور التي فعلها إلينا؛ وهذه المقدمات ببعضها تصير كلية ينطوي تحت كل واحدة منها أمر مما ينبغي أن يؤثر أو يجتنب. وبعضها مفردات وجزئية تستعمل مثالات لما يريد إنسان أن يقف عليه من الأمور التي يشاهدها. وهذا العقل إنما يكون عقلاً بالقوة ما دامت التجربة لم تحصل، فإذا حصلت التجارب وحفظت صار عقلاً بالفعل ويتزيد هذا العقل بالفعل بازدياد وجود التجارب في كل سن من عمر مراحل الإنسان في عمره» من كتاب الفارابي (نصوص منتزعة).

ويشير الفارابي إلى استعمال لفظ «العقل» عند المتكلمين من رجال الدين والفقهاء حين يقولون: (إن هذا يوجبه العقل أو ينفيه العقل، فإنهم يعنون به المشهور في بادئ الرأي عند الجميع. فإن بادئ الرأي المشترك عند الجميع أو الأكثر يسمونه «العقل». ويرى ديكارت أن العقل «هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس»، وعند أفلاطون وأرسطو فالعقل قوة أو ملكة أو جزء من النفس؛ ويتميز بين سائر قوى النفس التي هي الإحساسات والخيال والشهوة والانفعال. ويميزان بين العقل والنفس على أساس أن النفس هي مبدأ الحياة وكل ألوان النشاط الحيوي بينما العقل هو مبدأ المعرفة والرؤية والتقدير).

وترى المعتزلة أن العقل يوظف الأفكار والأحاسيس في وعي المنطق في البحث واكتشاف حقيقة الأشياء والوقوف على معانيها

الجوهرية عبر علم الكلام وتأمل وحدة الكون... وهم يلتقون مع نظرة أرسطو حول كون العقل ملكة قوة ذاتية فكرية في عقل الإنسان، وهي كلية في ذاتها مستقلة بذاتها لا تخضع للعقل الكلي في تخييرها وتسييرها... حيث لا أحد يخير ولا يُسير إلا العقل وحده، وأن المقام الأول للعقل ولا مقام على مقامه... وهو ما كان يستشعره أبو العلاء المعري بأن العقل (الإمام) في النظرة الكونية إلى الحياة... وكانت المعتزلة أول فرقة في الإسلام أطلقت مارد العقل من قمقم النقل ودفعت به حراً طليقاً يبحث عن الحقيقة ويحرر التاريخ من زيف التاريخ!!

إن عجلة التاريخ ما برحت تدور زيفاً في عجلة التاريخ... وكأن قيد النقل ما برح يشد وثاق العقل... وكأن العقول عندنا موشاة بزيف النقول...

فحديث ما يحدث عندنا سياسياً واجتماعياً وثقافياً يغط في المنقول خارج المعقول... وكأن حديث منابر المساجد عندنا ومنذ سقيفة بني ساعدة ما برح الدعاء عندنا: اللهم ثبت عقولنا... (ثبت عقولنا على ماذا على المنقول أم المعقول)؟!

كأن الكلام عندنا لغط كما عند أسلافنا، إذ يأخذ لغط اللامعقول في المنقول... وما زلنا نردد في صلواتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا وثبت أقدامنا إنك على كل شيء قدير!! وترى المعتزلة في ذلك اتكالية لا تدفع إرادة العقل إلى التطوير والتجديد والتغيير!!

إن العقل لدى المعتزلة عقلان: «عقل» الدين وعقل الدنيا. عقل الدين يخضع للنقل في دور العبادة.. أما عقل الدنيا فله مطلق الحرية في جدع أنف النقل الذي يزج أنفه في تفاصيل الحياة الدنيا وينزع إلى المواءمة بين نشاط الدين ونشاط الدنيا!!

الأمر الذي ترفضه المعتزلة في زج حركة النقل في تفاصيل حركة العقل، وكأن المعتزلة تفقد «عدلها» في السماح لنص العقل في زج أنفه في نص النقل، على اعتبار أن حرية نص العقل واسعة في الحياة، أما حرية نص النقل، فهي محصورة في دور العبادة ومساجد الله، وهم بذلك يتمثلون في نظرتهم الفلسفية: في العلاقة بين الخاص والعام وفي كون الخاص جزءاً من العام وليس العكس!!

المعتزلة

يشكل المعتزلة في الإسلام ظاهرة مثيرة للجدل لحيوية تأويل معاني النصوص الإسلامية... بالنظر إلى أنهم أول فرقة إسلامية تبنت نهج العقل في نظرتها إلى المسائل الدينية والفقهية وإلى الحياة بشكل عام.. وذلك بإخضاع النصوص الدينية لبراهين العقل وليس «لبراهين» النقل.. ومن تصور مادي يشير إلى أن النقل لا برهانية حضورية لديه خلاف العقل الذي يمتلك حضورية برهانية عقلانية تجاه الماضي والحاضر والمستقبل: فالعقل يتأمل حاضره ولا ينزع برهانيته فقط من الماضي وإنما يتأول الحاضر ويستشرف المستقبل في إخضاع النصوص والمأثورات الدينية للعقل وتحريرها من قبضة المسلمات النقلية!!

وقد نشأت المعتزلة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري.. إثر القيام بترجمة العلوم اليونانية في عهد الدولة العباسية ومنها الفلسفة وإبراز فلاسفتها مثل أفلاطون وأرسطو وغيرهما.. وذلك في غرة عهد المأمون وبدايات القرن الثالث الهجري.. وقد ساهم خصومها في إشهارها وتعريف الآخر بها، جراء الهجوم عليها ومحاربتها وتكفيرها تحت اسم «القدرية»، بناء على نظرتها العقلانية

الموضوعية إلى أن الإنسان وحده يصنع قدره في أفعاله التي يقوم بها بإرادته وتقديراته وتصوراته العقلانية، ولا شأن لخالق بالتدخل فيها أو توجيهها أو دفعه إلى القيام بها.. فإرادة المخلوق للمخلوق وهي تعنيه وحده دون غيره ودون أن يتدخل فيها أحد غيره... فقد خُلق الإنسان مع إرادته وليست إرادته مفصولة عنه، بل هو وحده الذي يتحكم فيها دون غيره... وفي ذلك بعد إنساني لحرية الإنسان واستقلالية إرادته.. أكان قد أدركته المعتزلة أم لم تدرك حيثياته التي تتجدد إنسانياً بالحقوق والواجبات في عصرنا... لدى الكثيرين من الكتاب والمفكرين أكانوا وعوا ذلك أم لم يعوه معتزلياً.

وقد اشتهرت المعتزلة أيضاً إضافة إلى «القدرية» بـ(أهل العدل والتوحيد) لكونهم يكرّسون حرية الإنسان ومسؤوليته وحده دون غيره فيما يعمل ويسعى ويقول ويعترض ويأخذ ويرفض، وأنه مسؤول عن فعله وعمله ولا دخل لأحد في ذلك من مخلوق أو خالق... وهم بذلك يبعدون شبهات أعمال السوء والباطل والاعتداء على الآخرين عن إرادة الله أو بإذن من الله، وبذلك ارتبطوا بالعدل تجاه الخالق والمخلوق وفصلوا إرادة المخلوق عن إرادة الخالق، كما عرفوا واشتهروا بذلك كونهم أهل العدل والتوحيد أيضاً.. لأنهم يرتفعون بالله فوق التهم والشبهات وأعمال الشر التي يقوم بها البشر وجعلوا من الذات الإلهية ذاتاً ربانية ليس كمثلها شيء مجردة عن الوصف والتشبيه.. فالخالق لا قِدم له لأنه لا أحد خلقه أما القدم فهو للمخلوق

الذي هناك من خلقه وهو الله.. وقد نفوا أن يشرك به أحداً.. كما نفوا وجود صفات قديمة لله ومن رؤية توحيدية في نفي قِدم صفة الله.. كما نفوا أيضاً أن يكون القرآن وهو كلام الله قديماً وقالوا إنه مخلوق وفي ذلك خروج بيّن على ما تنزع إليه المسيحية ونظرتها إلى قدم عيسى وألوهيته كونه (كلمة الله) وفي قدمه في ذات قدم الله!!

إن كل قديم له جديد.. وكل جديد له قديم، من القديم يتشكل الجديد ومن الجديد يتشكل القديم.. هكذا تتوالد الأشياء من رحم الحياة في جديدها وقديمها وهذا ضمن حركة التاريخ والجغرافيا.. أما خارج التاريخ والجغرافيا.. إذا كانت هناك حياة ملموسة تُصبح خلاف الحياة في حركة التاريخ والجغرافيا...

إن هذا التوالد الأبدي من رحم الحياة خلاف التكوين خارج الحياة وخارج التاريخ والجغرافيا.. حياة إنس وجن وملائكة وشياطين وخالق يدير الحياة خارج التاريخ والجغرافيا!! أيمكن للعقل أن يكون خارج الإنس والجن والملائكة والشياطين والله... هل تذكرون كتاب مصطفى محمود (الله و الإنسان).. وقد اختلفت المعتزلة أإمعان العقل ضمن حركة التاريخ والجغرافيا أم إمعانه خارج حركة التاريخ والجغرافيا.. أم إمعانه في التاريخ والجغرافيا وخارج التاريخ في الجغرافيا... وفي تجنب الشرك في صفات الله كانوا يمعنون عقولهم ضمن حركة التاريخ والجغرافيا وليس خارجها وكفى المعتزلة شرّ الكفر بالله!!

إن تجنب المعتزلة إعمال العقل بشكل مطلق داخل التاريخ وخارج التاريخ لعدم الوقوع في المحذور وهو الإلحاد.. إلا أن الكثيرين منهم يهبون للعقل مطلق التأمل وإبداء الرأي، أكان ضمن حركة التاريخ والجغرافيا أم خارج حركة التاريخ والجغرافيا.. وقد برز بينهم شيوخ ومفكرون ملحدون وغير ملحدين وعلى رأسهم شيخ الملحدين (ابن الراوندي) صاحب كتاب الزمرد وغيره من الكتب التي تعترض المعتزلة في إلحادها فيما هم عليه وفي أركان مبادئهم الخمسة التي سوف نأتي عليها وكأنهم بها يشاكلون أركان الإسلام الخمسة.. وهم في الواقع لا يعارضونها وإنما يتشكلون فيها من وجهة نظرهم الإسلامية الخاصة بهم ومن يشايعهم في أفكارهم وفلسفتهم ونظرتهم إلى الحياة... إن حركة المعتزلة الفكرية في الإسلام كما أي حركة فكرية في المجتمعات البشرية، ترتبط بالتطور الاقتصادي الذي يرتبط بالسياسة وبالثقافة وبحركة المجتمع بشكل عام.

وفي الموسوعة السياسية ما يؤتى عليه تجاه المعتزلة:

«إن في عهد واصل بن عطاء (699-748م) وعمر بن عبيد (699-761م) وهما من أبرز أئمة المعتزلة الأوائل.. حدث انقسام في «أهل العدل والتوحيد» بسبب الرأي الذي استحدثه واصل بن عطاء في تقييم الدولة الأموية وأنصارها الذين كانوا يقترفون المظالم «الكبائر». فلقد اتخذ واصل بن عطاء موقفاً وسطياً بين موقف الخوارج الذين يحكمون بكفر مرتكب الكبيرة وبين موقف نفر من أهل العدل والتوحيد يتزعمهم

حسن البصري (642-728م) الذين قالوا إن مرتكب الكبيرة مؤمن ومنافق على حين قال واصل: إنه في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان.. فهو فاسق ليس بمؤمن وليس بكافر.. والذين تبعوا واصلاً في موقفه هذا تبنوا هذا الأصل الجديد من أصولهم الفكرية وانشقوا معه على جماعة الحسن البصري وعرفوا منذ ذلك التاريخ باسم «المعتزلة».

ويتشكل المذهب المعتزلي من خمسة أركان أصولية..

الركن الأول: العدل ويعني القول بحرية الإنسان واختياره.. وقدرته على خلق الأفعال الصادرة عنه بحسب قصده وإرادته لها واختراعه لهذه الأفعال (العدل حرية.. والحرية عدل) فلا حرية بدون عدل.. ولا عدل بدون حرية.. نظرة متقدمة اندثرت، تأتي الحياة على نبش صحتها وأهميتها للمجتمعات البشرية وعبر الكثيرين من المثقفين والمفكرين المعاصرين!!

الركن الثاني: التوحيد ويعني تنزيه الذات الإلهية عن المشابهة والمماثلة مع المخلوقات والمحدثات.. بما في ذلك نفي الصفات الزائدة عن ذات الخالق.. وتصور الذات الإلهية أشبه ما تكون بالفكرة المجردة أو القانون الذي يحكم هذا الوجود.. وكذلك القول بخلق القرآن حتى لا يكون هناك أحد في البدء آخر غير الله..

الركن الثالث: الوعد والوعيد.. يعني صدق وعد الله لأهل الطاعة.. ووعيده لأهل المعاصي وأن الإيمان (الفكر) شديد الارتباط بالعمل (التطبيق) ومن ثم فلا يغني عن المرء إيمانه.. إذا لم يصدق

العمل الطيب هذا الإيمان.. كما أنه لا يغني عن العصاة يوم الحساب شفاعة الشافعين..

الركن الرابع: المنزلة بين المنزلتين.. ويعني الحكم على مرتكبي الكبائر الذين يموتون دون توبة نصوح.. الحكم عليهم بالخلود في النار وتسميتهم «فسقة» وجعلهم مرتبة أدنى من المؤمن وأعلى من الكافر.

الركن الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعني المشاركة الإيجابية من كل مسلم مؤمن في تقويم المعوّج من أمور الحياة العامة ونظم المجتمع الذي يعيش فيه المؤمن.



التأويل المعتزلي

التأويل تحريك الشيء وزحزحته من مكانه وهو إرجاع الشيء إلى أوله... وأول الشيء غير مدرك.. فالشيء قبل أن يكون شيئاً لا يُدرك... إلا أنه شيء موجود!! هكذا تتوحد المعتزلة في الله.. ليس كل المعتزلة يتأولون نص التوحيد وخارج نص التوحيد وحول نص التوحيد.. فبعض الأشياء تدرك وبعضها لا يدرك وبعضها يدرك ولا يدرك، إنها تقع بين الشك واليقين... والشك لا يدرك واليقين لا يدرك أيضاً... فليس كل الأشياء في الواقع إدراكاً... إنها في واقع إدراك وواقع خارج الإدراك...

والعقل يكدح أبداً في محيط الإدراك وخارج محيط الادراك بحثاً عن حقيقة الشيء... في الله وفي أشياء الله!!

إن التأويل مهنة العقل في تحريك ما يدرك وما لا يدرك من الأشياء... ولا تشابه في حقيقة الأشياء كما لا تشابه في حقيقة العقول... فالعقول من الأشياء. كل عقل له خصوصية تأوله وتخيله وتأمله في الأشياء المدركة والأشياء غير المدركة!!

فهناك أشياء معقولة وأشياء غير معقولة... فالعقل يمتهن وظيفة الأشياء المعقولة والأشياء غير المعقولة.. عبر التأول والتخيل والتأمل

وعلى مسار إفرازات العقول في التأول والتخيل والتأمل تتنابت الآراء وتتشتت العقول والأفكار والعقائد والأديان ضمن ما هو معقول ومقبول وما هو غير معقول ولا مقبول، حيث يتشكل الصراع بين المعقول وغير المعقول... في صراع الحياة المرتبط بالصراع الطبقي رأس كل صراعات الحياة المادية والفكرية وجوهرها؛ وقد احتوت الأديان كل الأديان ما هو معقول ومقبول وما هو غير معقول وغير مقبول.. وتناشطت تأويلات العقول في المعقول وغير المعقول.. فالحياة ولّادة الأشياء، وكلما توالدت الأشياء في الحياة اشتدت العقول في ممارسة وظائفها المهنية وتنامى الصراع وبدأ الصدام على الأرض وأفنت الحروب أشياء المعقول وأبقت على أشياء ما هو غير معقول.. وسادت حاكمية اللاعقل على العقل.. إلا أن العقل بطبيعته عقل متمرد صاخب الحركة والبركة يتوحد في ذات عقله ويرفض عقل الآخر.. وقمع الآخر.. واستبداد الآخر..

وكانت حركة التأويل مزدهرة في عمق الفلسفة والآداب الإسلامية، وقد شرّعت المعتزلة أبواب حركة تأويل العقول على مصراعيها، فكان فتحاً لحرية العقل والإبداع لاقتحام مجاهل العقول المتكلسة في نصوص العقول وفضّ بكارتها لأول مرة في تاريخ فلسفة الآداب الإسلامية وفي البحث عن يقين متمرد على إمامة العقل...

فالعقل في حد ذاته هو معجزة ولا معجزة سوى العقل... وهو يرفض المعجزة... وترى المعتزلة أن إبطال إعجاز المعجزات في

العمل على إخضاعها للعقل، وليس هناك معجزة خارج العقل «إلا معجزة الخلق في خلق القرآن ومعجزة الخلق في خلق الخالق».

وكان السؤال يدور في دوائر المعتزلة... أمعقول أن جبريل الذي قامته تشق السحب طولاً يوم أن نادى كما يقول ابن عباس فيما يرويه (القزويني): «إن الله سخّر الجن للنبي سليمان وكان جبريل ينادي بصوت جهوري أيها الجن والشياطين اخضعوا بإذن الله للنبي سليمان بن داوود:

فتنافرت الجن والشياطين كالنمل من جحورهم ومن مغاورهم ومن الجبال والآكام والأودية والقنوات والآجام مذعورة قائلة: لبيك لبيك. والملائكة تسوقهم سوق الراعي للغنم حتى حشرتهم تحت قبضة سليمان طائفة ذليلة وهي يومئذ أربعمائة وعشرون فرقة.. فوقفوا بين يدي سليمان فجعل ينظر إلى خلقها وعجائب صورها وهم بيض وسود وصفر وشقر وبلق على صورة الخيل والبغال والسباع ولها خراطيم وأذناب وحوافر وقرون، فسجد سليمان لله وقال: ألبسني من القوة والهيبة ما أستطيع النظر إليه.. فقال له جبريل: إن الله قوّاك عليهم قم من مكانك فقام والخاتم في إصبعه فخرّت الجن والشياطين ساجدة ثم رفعت رؤوسها وقالت: يا ابن داوود إنا قد حشرنا إليك وأُمرنا لك بالطاعة، فجعل سليمان يسألهم عن أديانهم وقبائلهم ومساكنهم وطعامهم وشرابهم وهم يجيبون، فقال لهم: مالكم صوركم مختلفة وأبوكم الجان واحد؟!

فقالوا: إن اختلاف صورنا لاختلاف معاصينا، وتعاطينا لإبليس واختلاطه بنا ومناكحتنا مع ذريته. فنظر سليمان فرأى المردة يهيمون بالفساد والملائكة يحولون بينهم وبين ذلك بالأعمدة».

وكانت المعتزلة تنأى عقلاً عن ترهات هذا الهذر الذي لا يقبله عقل ولا يهدأ له وعي إنسان!! يا لترهات نقل المنقول.. وعنعنات ماهو حامل ومحمول من وإلى وعن وعلى...

وعن ابن عباس: «إن إبليس لما خرج من الجنة ألقى الله عليه الحُرقة والغلمة فنكح نفسه فباض أربع بيضات فمنها ذريته». فالجهل خوف والخوف جهل، وهما آفة واسعة الخيال في الكذب والإفك والتزوير والادعاء بمعرفة كل شيء. والجاهل متعالي أنوف الجهل والكذب أمام الآخرين ويأبى إلا أن يكون عارفاً ولا طريق أمامه إلا أن ينفي جهله بالكذب والإفك والتزوير.. فالحاكم ينقل أكاذيبه عن تنابلة سلطانه في الشريعة والعالم؛ والفقيه ينقل أكاذيبه عن التراث والأنبياء والرسل وكتاب الله... وكان أبو العلاء المعري يردد:

إن الشريعة ألقت بيننا إحناً ... وعلّمتنا أفانين العداواتِ

وعن محمد بن اسحاق: «بلغني أن إبليس تزوج الحية التي دخل فيها حين كلّم آدم عليه السلام بعد ما أخرج من الجنة فمنها ذريته.. وقد خاطب إبليس ربه قائلاً: يا رب لعنتني وأخرجتني من الجنة وجعلتني شيطاناً رجيماً مذموماً مدحوراً وبعثت في بني آدم الرسل وأنزلت عليهم الكتب..

فما رسلي؟! قال: الكهنة!!

قال: فما كتبي؟ قال الوشم.

قال: فما حديثي؟ قال حديثك الكذب.

قال: فما قرآني؟ قال قرآنك الشعر.

قال: فما مؤذني؟ قال مؤذنك المزمار.

قال: فما مسجدي؟ قال مسجدك الحمام.

قال: فما طعامي؟ قال طعامك ما لم يذكر اسمي عليه!!

قال: فما شرابي؟ قال شرابك كل مسكر.

قال: فما مصائدي؟ قال مصائدك النساء...

ومن هذه الترهات عند الثعالبي في «عرائس المجالس» وأنه لما خلق الله تعالى العرش قال لم يخلق الله تعالى خلقاً أعظم مني واهتزّ متعاظماً.. فطوقه الله بحية لها سبعون ألف جناح في كل جناح سبعون ألف ريشة.. وفي كل ريشة سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف فم في كل فم سبعون ألف لسان.. يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وعدد ورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا وعدد الملائكة أجمعين.. فالتوت الحية على العرش فالعرش إلى نص الحية وهي ملتوية..

وقال ابن عباس رضي الله عنه: لما هبط آدم إلى الأرض على جبل (سرنديب) وذكر أن ذروته أقرب من ذروة جبال الأرض والسماء، وكانت رجل آدم على الجبل ورأسه في السماء يسمع دعاء الملائكة

وتسبيحهم.. وكان آدم يأنس بذلك فهابته الملائكة واشتكت إلى ربها فحطت قامته إلى ستين ذراعاً وكان قبل ذلك يمس رأسه السحاب فصلع وأخذ أولاده الصلع فلما نقص من قامته ذلك قال: رب كنت جارك في دارك ليس لي رب سواك ولا رقيب دونك آكل فيها رغداً وأسلك حيث أحببت فاهبطتني إلى هذا الجبل وكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها، ثم أهبطتني إلى الأرض وحططني إلى ستين ذراعاً فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهبت عني رائحة الجنة، فأجاب الله تعالى: بمعصيتك يا آدم، فقال آدم: ذلك بك يا رب»

وكان المعتزلة يسخرون من ذلك ويرون فيه إزاغة للعقل وتأليفاً وتدبيراً من الأساطير ومن أمور لا تمت إلى الحقيقة بصلة ولا يمكن للعقل أن يصدقها ويقبلها، فهي خرف من هرف وتأفيك وابتذال للخيال والحط من الثقافة الدينية القائمة على الواقع الملموس في الحياة!!

وكأن أحدهم... يردد ما قاله أبو العلاء المعري:

أأتـــرك هـــذه الصهباء يوماً لما وعـــدوه مـــن لبنٍ وخمرِ
حـــيـــاة ثـــم مـــوت ثـــم نشر حـــديـــث خـــرافـــة يـــا أمّ عمرِو

العقل والنقل لدى المعتزلة

الحياة سيرورة عقل ونقل.. فكل معقول منقول وكل منقول معقول.. ومن المعقول يخرج المنقول ومن المنقول يخرج المعقول.. معقول اللحظة منقول ومنقول اللحظة معقول.. وفي الإنسان نفي نقل ونفي عقل.. وقد استوى الله في الإنسان عقيدة عقل ونقل.. وفي عقيدة نفي العقل النقل ونفي النقل العقل...

ولا وجود لنقل بلا عقل.. ولا وجود لعقل بلا نقل.. فالوجود نقل وعقل.. وكان الله عقلاً ونقلاً في وجود الإنسان وفي تضارب الشك باليقين من واقع أن الشك يقين واليقين شك...

لا حرية لنقل بدون حرية لعقل ولا حرية لعقل بدون حرية لنقل.. فالحرية مكفولة بإيمانية ماهو منقول وما هو معقول.. وقد جسد المعتزلة إرادة العقل لدى الإنسان ونادوا بحريته في الإسلام ودانوا دكتاتورية النقل وسيادته على العقل، وكانوا ينادون بتسييد كل ما هو معقول على كل ما هو منقول.. إلا أنهم يسيدون منقولهم على منقول الآخر دون أن يراعوا وهج الحرية في المنقول والمعقول، ويضعنا الطبري على حقيقة افتراء «معقول» المعتزلة على «منقول» الآخر.. وكانوا يبحثون في المنقول والمعقول برهانية صحة العقل والإيمان في

نفوس وعقول الذين لم يستسلموا بعد ويناكفون المقولة المعتزلية في خلق القرآن...

وكان الصخب الأيديولوجي الدموي يأخذ صخب عنجهية دموية الدكتاتورية المعتزلية في عهد المأمون.. وكان البحث عن سلامة صحة إيمانية المعقول يتحدد حول مقولة خلق القرآن.. فإذا كان الله هو خالق كل شيء وخلق قرآنه فإنه خلق نفسه.. وكان لغط الكلام يؤجج تنافر العقيدة الإيمانية بين الناس ويثير الارتباك في عقيدتهم. ولما استقر رأي أمير المؤمنين (المأمون) والمحيطين به من فقهاء المعتزلة وأئمتها وكان المأمون قد زين من أئمة المعتزلة أنه مأمور من الله في تصحيح عقائد الناس الفاسدة تكريساً لنفوذه السياسي وسيطرته.. فالسيطرة بواسطة الدين والسياسة تصبح سيطرتين: سيطرة دين وسيطرة سياسة، فالسياسة تحرك شأن الدين والدين يحرك شأن السياسة في المجتمع!!

وقد أتى المأمون بكبار فقهاء الدين واللغة وهم: محمد بن سعد الواقدي وأبو مسلم يزيد بن هارون ويحيى بن معين وزهير بن حرب أبو خيثمة واسماعيل بن داوود واسماعيل بن أبي مسعود وأحمد الدورقي، وكانوا أمام امتحان صعب يكشّر الدم فيه عن إيمانية خلق القرآن، وسألهم المأمون في خلق القرآن فأجابوا جميعاً وسراويلهم مبللة من الخوف.. إن القرآن مخلوق وفقاً لمرئيات المعتزلة.. وكان من أشد أنواع التعسف الفكري استباحة عقيدة الآخر وإخضاعها قسراً إلى عقيدة فكرية لا يؤمن بها، وهو ما يندرج ضمن اضطهاد المنقول

للمعقول واضطهاد المعقول للمنقول، وعلى ايقاع اعتراض سيرورة الحياة في متناقضات فيما هو منقول وماهو معقول.. وقد وسع المأمون إجراءات مساءلة العباد في تكريس عقيدة خلق القرآن فكانت محنة فكرية وايديولوجية ودينية في البطش بعقيدة ضد عقيدة أخرى بالحديد والنار والدم، وكان المأمون يريد أن يرغم فقهاء الإسلام وأئمته على قبول فكرة خلق القرآن، وعلى ضوء وحدانية الخالق وأزليته وتنزيه كينونة ذاته في عزته وتعاليه عن القِدَم وتصويب رؤية المعتزلة أن لكل حديث قديماً ولكل خالق مخلوقاً جل وتنزه على أن يكون له خالق وهو الخالق الصمد الواحد الأحد الذي لا خالق قبله ولا خالق بعده!!

وكان أن جمع بأمر المأمون الكثير من الفقهاء منهم: أبو حسان الزيادي وبشير بن الوليد الكندي وعلي بن أبي مقاتل والفضل بن غانم والذّيان بن الهيثم والحسين بن حماد (سجادة) وعبيدالله بن عمر (القواريري) وأحمد بن حنبل وغيرهم، وراح يسألهم واحداً واحداً فقال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن. فقال البشر: القرآن كلام الله، قال مأمور المأمون المكلف اسحاق بن ابراهيم لم أسألك عن هذا.. أمخلوق هو؟! قال البشر: الله خالق كل شيء.. فقال اسحاق هل القرآن شيء؟! قال هو شيء... قال اسحاق فمخلوق هو؟! قال ليس بخالق... قال اسحاق: لم أسألك عن هذا هل هو مخلوق؟! قال بشر: هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا!!

وهو ما يظهر كر وفر النقل أمام العقل والمنطق.. وحسم النقل في العقل وحسم العقل في النقل.. وهو ما يشكل تداخل روحين في روح واحدة.. تداخل روح النقل في روح العقل وتداخل روح العقل في روح النقل...

أللنقل روح؟! روح النقل.. أللتأويل روح؟! روح التأويل..

ويتكرر السؤال دون الإمساك بالروح فالروح تمسك ولا تمسك.. ولا يمسكها إلا الواحد القهار وكانت المعتزلة تبحث عن الدليل... ولا دليل!!

هناك روح بين برزخ العقل وبرزخ النقل.. فالنقل يشف النقل في روحه والعقل يشف العقل في روحه!!

يا لهوة البرزخ... هوته بين العقل والنقل في روحيهما...

«إن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا» وهو ما يكرره مثقف السلطة حتى يومنا هذا مناكفاً ومقاتلاً ومناوئاً المثقف الذي يعرف اليوم بالمثقف العضوي. «إن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا» يا لسخرية القدر.. يا لوجع النص... يا لتكاذب النصوص في تاريخنا.. يا لقمع النصوص في حياتنا.. يا لموت النصوص فينا... كأن نصوصنا أجداث.. وإن أجداث نصوصنا ما برحنا حتى اليوم نحمل توابيتها على ظهورنا!!

وعلى مرّ تاريخنا يتكرر النص ذاته حتى هذا اليوم: «إن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا». إن ركيزة السمع والطاعة الركيزة

الأيديولوجية والفكرية والدينية والسياسية ما برحت ترتكز على عمق تأخرنا... وكأن ذات السؤال... ما برحت تلاحقنا في ذات عقولنا وإن أخذ أشكالاً متعددة، إلا أن الخضوع والإذلال في مفردات السمع والطاعة وفي نقع الدم الذي ما برح يبلل ذاكرتنا!!

ثم قال جلاد المأمون اسحاق بن ابراهيم لأبي حسان الزيادي: هل القرآن مخلوق؟! قال أبو حسان: القرآن كلام الله.. والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق.. وأمير المؤمنين إمامنا وقد سمع ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم، وإن أمرنا أطعنا وإن نهانا انتهينا وإن دعانا أجبنا، قال جلاد المأمون اسحاق بن ابراهيم: هل القرآن مخلوق؟! قال أبو حسان.. إن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني فإنك الثقة المأمون، قال اسحاق ما أمرني أن أبلغك شيئاً وإنما أمرني أن أمتحنك..

أللحاكم ـ أي حاكم ـ سمع غير سمعنا وعقل غير عقلنا.. أللحاكم أذن غير أذننا.. أللحاكم بصر غير بصرنا؟!

أسمع وبصر وعقل وأذن الحاكم بصيرة غير بصيرتنا؟! أسمع وبصر وعقل وأذن وبصيرة المخلوق مثل سمع وبصر وعقل وأذن وبصيرة الخالق؟!

أسمع وبصر وعقل وأذن وبصيرة الحاكم مثل سمع وبصر وأذن وبصيرة المحكوم؟!

لا سمع ولا بصر ولا أذن ولا بصيرة متشابهة لأحد... فإنه لا

طاعة ولا سمع لأحد على أحد وفق سيرورة الحياة في نقض المنقول في المعقول ونقض المعقول في المنقول!! وكأن التاريخ يعيد نفسه بين كواليس الدكتاتورية العربية وجلاوزتها في محاكمة حملة الأفكار الوطنية واليسارية والديمقراطية والشيوعية في البحث عن السمع والطاعة في ضمائر الناس...

رفع اسحاق بن ابراهيم رأسه لأحمد بن حنبل: ما تقول في القرآن؟ قال أحمد بن حنبل: هو كلام الله.. قال اسحاق: أمخلوق هو.. قال أحمد: هو كلام الله لا أزيد عليها.. قال: ما معنى أنه تعالى سميع بصير؟ قال أحمد: هو كما وصف نفسه..

وكان اسحاق يحاول ان ينتزع أحمد من «المنقول» ويدفع به إلى «المعقول».. وكان أحمد يسوّف في كنف المنقول ولا يتوغل في المعقول. وكانت التقيّة تنازل روح أحمد بن حنبل ـ دون أن يأخذ بها ـ في خوفها وخدرها وكتمانها وستر روح العقيدة..

استحالة إخضاع العقل.. كل عقل له وجهة نظر تخالف العقل الآخر.. سلاح العقل أقوى من سلاح الحديد والنار والقمع والتنكيل، ولا يمكن لسلاح الحديد والنار والقمع والتنكيل إخضاع العقل حتى ولو تظاهر خاضعاً ذليلاً متجاوباً.. العقل يخضع ويتجاوب بالفعل وحجة الإقناع، وخلاف ذلك لا يمكن ترويض قناعة العقل بالقمع والحديد والإرهاب.. العقل مشيئة ذاتية حرة طليقة متمردة لا مشيئة عليها إلا مشيئة ذاتها. وكان أبو العلاء المعري «المعتزلي» الشامخ في

ذات العقل يضع العقل إماماً فوق كل أئمة المذاهب قائلاً: «لا إمام سوى العقل»!!

أيـهـا الـغـرُّ إن رُزقـت بعقل فـاسـألـنـه كـل عـقـل نبي

وكان هذا «المعتزلي» الأعمى «المبصر» يشق جبروت ستار الجدل وظلام الخوف كقامة شعرية سامقة لم يسبقها أحد في ميدان فلسفة الآداب الإسلامية... وفي قلق حيرة البحث عن اليقين يُصوب شعراً لم يكتشف حقيقتها في الإسلام أحد قبله:

سألتموني فأعيتني إجابتكم مـن ادعـى أنـه دارٍ فقد كذبا

إنه يماهي بين الشعر في الفلسفة وبين التوحد في وجود وجدانية الإنسان من خلال سلطة إرادة العقل.. يقول الكاتب المصري حسن طلب: «إن طه حسين هو أول من لفت الأنظار إلى فرادة تجربة «المعري» وأصالتها خصوصاً في «اللزوميات». وحين طلب إليه عبدالوهاب عزام أن يقدم ترجمته لأحد نصوص «محمد إقبال» في النصف الأول من القرن الماضي قال (العميد) عن إقبال هذا ثاني الشعراء المتفلسفين في الآداب الإسلامية والأول بالطبع هو «المعري» وحين ترجم «المعري» إلى الفرنسية صادف شعره رواجاً لم يكد يصادفه شاعر عربي آخر، فقد وجد فيه القارئ الفرنسي والعربي عموماً قامة شعرية سامقة تذكره بالقامات السوامق في تراثه من «دانتي» إلى «شكسبير» إلى «غوته» وغيرهم..».

وكما أن الجميل يفرز الخبيث والخبيث يفرز الجميل فإن الدين أفرز منافقيه وأشقياءه وأدعياءه والمتاجرين بقيمه والمدعين بإماميته والناشرين دعوته لمصالح سياسية وأغراض دنيوية لا تمت إلى الدين بشيء.. وقد رأى «المعري» ـ كما يقول حسن طلب ـ إلى النفاق الديني السائد في عصره قاصر على تعريته كما أصر على مواجهة الطغيان والاستبداد في مختلف الصور..

هاجم رياء الفقهاء وظلم الأمراء بجرّة قلم ولكن أي قلم، فهؤلاء في الأصل ليسوا سوى مجرد أجراء لدى الأمة ولكنهم عدوا مصالحهم واستباحوا خيراتها لأنفسهم، أما الأولون فمجرد تجار دين لم ينجحوا إلا في تحويل الدين إلى سلعة:

نادت على الدين في الآفاق طائفةٌ   يا قوم من يشترى دنيا بدينارِ

وما برحوا حتى يومنا هذا سماسرة الدين وفقهاءه وأئمته يتاجرون بالعباد وقيم العبادة ويدفعون الدين في سوق النخاسة!!

الثابت والمتحرك عند المعتزلة

إن العناصر الثابتة في ثبات مرجعيتها تنحدر دائماً إلى الزوال.. وكان للمعتزلة سبق إدراك علاقة الثابت والمتحرك بين العقل والنقل في الإسلام لكونهم أول فرقة نهضت بالعقل على النقل وفندت نصوص النقل بنصوص العقل...

لقد فتحت المعتزلة نوافذ العقل على مصراعيها في عمق جمود النقل وزحزحة مفاهيمه الجامدة في بؤس تشبثاته التقليدية في أمور غير قادرة على الصمود أمام أبسط التفاته مقبولة في شأن العقل المتحرك على شأن النقل الثابت في الإسلام..

إن شأن العقل المتحرك على شأن النقل التقليدي الثابت في الإسلام لا يعني هدم كل شيء في الإسلام بقدر ما يعني تجديد الفكر الإسلامي وجعله على سكة العقل وإخراجه من دهاليز أساطير النقول التي أكل وشرب عليها التاريخ ردحاً من الزمن!!

وقد شهر المعتزلة سلاح عزل العقل عن النقل وأطلقوا حرية النص العقلي على النص النقلي.. حرية مخاصمة فلسفية نقدية منطقية استمدت مفاهيمها من الفلسفة اليونانية والفلسفة الهندية والفلسفة

الفارسية، وفي ذلك امتداد تاريخي لمجمل مفاهيم الأديان وتطواف الميثولوجيا على وجه الأرض داخل الأديان وخارجها!!

إن كل البشر طراً ترابطوا في النقول والعقول وتشكلوا في عمق الميثولوجيا وفي ظهور الأديان على وجه الأرض في المدِّ والتمدد والنهل والتناهل، وكانوا على قاعدة واحدة في صراعهم بين الثابت المنقول والمتحرك المعقول من خلال الصراع الطبقي في الحياة والمجتمعات..

إن فصل أو عزل أو تجريد الثابت المنقول عن المتحرك المعقول يعني اعطاء كامل حرية تأويل معنى المعقول في معنى المنقول لكون معاني الأفكار بطبيعتها متحركة في العقل الذي هو أيضاً بطبيعته متحرك في معاني الأفكار... ولن تجد فكراً إلا متحرك المعنى ولن تجد عقلاً إلا متحرك المعنى في كل النصوص الثابتة والمتحركة في التاريخ وخارج التاريخ في الواقع وفي الغيب - بالخيال - وخارج الخيال على السواء..

إن أهم وأسمى شيء في العقول والأفكار هو الخيال الذي يخلق المعجزات في الثابت والمتحرك في التاريخ وخارج التاريخ!!

الخيال يضع أشياء خارج التاريخ وفي التاريخ ويُمعنها خيالاً إلى أن يلامسها واقعاً في عقل الإنسان.. إن كل أفكار الأديان لها ملامسة واقع الخيال وملامسة خيال الواقع في الخيال.. ملامسة المعنى في

الخيال وملامسة خيال المعنى على شطآن نصوص كل النقول والعقول في الحياة!!

لقد شقَّ المعتزلة قلب الظلام وأثاروا تساؤل العقل في المعتقد.. استهدافاً لتحريره من رواسب الميثولوجيا. وسواء أصابوا أم أخطأوا في ترسيخ مفاهيم... على مفاهيم... ونقد مفاهيم بمفاهيم.. وقد أصبحت العقول من بعدهم تناهض النقول وترفع معاول الهدم لإزالة رواسب الميثولوجيا والخرافة في الفكر الإسلامي.. وكانت لهم مساهمة جليلة في تكريس المفاهيم العقلية في الفلسفة حتى أصبح من بعد فتحهم أناس يذكرون بفلاسفة الإسلام أي أصبح للإسلام من يتناوله.. بفلسفة ومنطق عقلاني ونصوص متحركة تخرج على سائد المفاهيم الثابتة وتخرجها من قوالب جمودها وتذرها تحت شمس الحقيقة في التاريخ والحياة.. ويكفي المعتزلة فضلاً بصرف النظر عن الموافقة أو المخالفة في الشأن الإسلامي فقد لا تجد باحثاً ومفكراً عربياً في الشأن العقائدي الإسلامي الاجتماعي والنظري والفكري إلا وتجدُ لبصمات المعتزلة أثراً في ذلك.. ويرى (أحمد بن يحيى المرتضى) في كتابه (باب ذكر المعتزلة وطبقاتهم) قولاً يؤكد أثر المعتزلة في تجديد الفكر الإسلامي: «إذا كان أي من الباحثين لم يطلق على أعلام المعتزلة تسمية الفلاسفة فإنهم ـ دون شك ـ قد ساعدوا على خلق الموقف العقلي الفلسفي وتتلمذ على فكرهم كل أولئك الذين دعاهم معاصروهم بفلاسفة الإسلام ابتداء بالكندي ووقوفاً عند ابن رشد»!!

فقد مهد التفسير العقلي للنظريات الإسلامية والأحكام الشرعية التي وضع أصولها مفكرو المعتزلة للانتقال من علم الكلام إلى الفلسفة بمعناها الشامل.. وكان الحوار الذي دار بين مفكري المعتزلة وغيرهم من المتكلمين الإسلاميين الآخرين حول الوجود والعلم والصفات والـذات والأفعال والمعرفة والنظر والحسن والقبيح والصلاح والفساد، كانت كلها مادة خصبة وقاعدة ضرورية لتكوين الفكر الإسلامي ومن أجل أن تمنحه الهوية الإسلامية العربية.

وقد لعب الخلاف فيما بين المعتزلة والأشاعرة وفيما بينهم وبين بقية الفرق الإسلامية الأخرى دوراً بارزاً وعظيماً في تطوير العقل العربي وفي جعله يتقبل من الآراء مالم يكن تقبلها.. وكان دور النظام ـ على سبيل المثال ـ لا يختلف كثيراً عن دور سقراط في تأسيس الفلسفة وإشاعة المفاهيم النظرية لأساليب الحوار. وكان ظهور مصطلحات الجبر والاختيار والرؤية والقديم والحديث يؤسس يومئذ للقفز بالعقل العربي الإسلامي إلى مرحلة الفكر التركيبي التحليلي القادر على استيعاب طموح العقل البشري وتناقضاته، وهو ما أعطى المعتزلة مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي القديم منه والحديث.

لا مكان للعدل إلا في العقل... وهل لعدل خارج العقل؟! الجنون وحده خارج العقل. وكانت المعتزلة تبحث عن العدل في العقل ولما أمسكت به أدركت أنه نقيض القدر...

لا عدل خارج العقل.. ولا قدر في العدل؛ فالعدل خارج القدر ونقيضه... وهو غيب لا يحاذيه العقل إلا في الخيال!!

العقل رفض القدر... ولا إرادة لقدرة مخلوق إلا خارج إرادة الخالق... في البحث عن العدل على الأرض...

يتشكل العقل في الزمان والمكان ولا عقل خارج الزمان والمكان إلا عقل الله.. وكما أنه لا حدود لعقل الله خارج الزمان والمكان فإنه لا حدود لعقل الإنسان في الزمان والمكان.. وكانت لجذور المعتزلة في زمان ومكان البصرة وبغداد يوم الدولة العباسية!! تماماً فقد كان «غرنوق» المعتزلة العظيم واصل بن عطاء الغزال (80 ـ 131 هـ) ولد في المدينة المنورة وترعرع على أرضها ونازعه عقله في العدل والقدر فاشتبك عدلاً في القدر وقدراً في العدل. ولما انتقل إلى البصرة تفتح عقلاً مناقضاً للقدر وكان له دور هناك في نشأة المعتزلة واكتمال مدرستها (مدرسة البصرة).

هكذا قالت المعتزلة: العدل خير... والقدر شر... وكان العقل يميل إلى الخير في العدل ويُدير ظهره للشر ضمن القدر. وبين الانتماء والاعتزال كان موقف المعتزلة ميلاً إلى الخير في العدل عبر العقل... واعتزالاً للشر في قدر الغيب خارج العقل!!

وينقل عن القاضي المعتزلي الكبير عبدالجبار بن أحمد الهمداني (المتوفى 415 هـ) قوله: «كل ما ورد في القرآن من لفظ الاعتزال فإنه

المراد منه الاعتزال عن الباطل»، وعن أبي اسحاق ابراهيم بن سيار النظام أن «الكلام علم ينتحل الحق والباطل وفق أهواء المتكلم في التأويل في سورة مريم الآية 48 ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ وفي قول الرسول الكريم «ومن اعتزل الشر سقط في الخير».

وكان أبو العلاء المعري يتأمل تناقض الأديان (كل يؤيد دينه يا ليت شعري ما الصحيح) إثر ضجة اللاذقية بين أحمد والمسيح..

في اللاذقية ضجةٌ
ما بين أحمد والمسيحْ
هذا بناقوس يدقُّ
وذا بمئذنة يصيحْ!!
كلّ يؤيد دينه ...
يا ليت شعري ما الصحيحْ؟!

ويقول القاضي الدكتور أحمد الحريثي في كتابه (المعتزلة والأحكام العقلية ومبادئ القانون الطبيعي): «إن تسمية المعتزلة في ذاتها لا تثير أي إشكال فاللفظ واضح الدلالة ولا يحتمل معاني كثيرة كبعض الألفاظ التي كان الاختلاف في معانيها سبباً للاختلاف في أحكامها».

فالاعتزال لغة من اعتزل الشيء وتعزله بمعنى تنحى وابتعد عنه، كما ينقل عن ابن منظور في لسان العرب.. وفي القرآن ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي إن لم تؤمنوا بي فلا تكونوا عليَّ ولا معي، فالله يريد

بهذه الآية معنى: «الحياد والانفصال والابتعاد».. إلا أني أرى الاعتزال ليس بالضرورة حياداً وقد يكون ضد الحياد!! ويرى الشهرستاني أن الأصل في قول الحسن البصري عندما اختلف مع واصل بن عطاء.. قال: اعتزلنا واصل فعُرف وأتباعه لذلك بالمعتزلة.. ويرى الملطي في التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع: سُمّوا بالمعتزلة عندما بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان وسلم إليه الأمر.. اعتزلوا الحسن ومعاوية وقالوا نشغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة».. قد كثرت التأويلات في هذا الخصوص، وهو ما يشير إلى الهزة الفكرية التي أحدثتها المعتزلة بالنهوض بالعقل في نقض سيرة النقل ارتباطاً بالسياسة في تحريك النصوص الثابتة بالنصوص المتحركة!!

وإن من أهم رؤوس وشخصيات وأئمة وفقهاء ومفكري المعتزلة ما نختزله في واصل بن عطاء الغزال وعمرو بن عبيد بن باب وأبي الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار النظام وبشر بن المعتمر الهلالي وثمامة بن الأشرس وجعفر بن حرب الهمداني وأبي الحسين الخياط وأبي علي الجبائي وأبي هاشم الجبائي والقاضي عبدالجبار بن أحمد الهمداني، وكانت لهم بصمات تأثيرية ثابتة في الفكر المعتزلي وكانوا مدافعين أباة عن الحركة الفكرية المعتزلية. وسيّان أكانوا على صواب أم على خطأ فقد كان لبصماتهم التأثيرية واقع فكري حتى يومنا هذا امتداداً لحملة العقول المستنيرة من المثقفين العرب مسلمين ومسيحيين وخلافهم الذين يبحثون عن الحقيقة ويخرجونها عارية خارج زيف تاريخها

وضمن واقع حقيقتها التاريخية الموضوعية العقلانية وفي صيغتها مأخوذة تماماً من قشورها... وكان للمعتزلة دور في هذا الخصوص؛ ويشير الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) إلى أن المعتزلة كانوا يخلطون المفاهيم الفلسفية بالمفاهيم الإسلامية وكانت تفسيراتهم وفق منهجية فلسفية، أي إخضاع الإسلام للفلسفة وليس العكس من واقع أن الفلسفة بحث عقلي خلاف الإسلام!!

وكانت الفلسفة عندهم أداة لتحرير الإسلام من شوائب ما يسيء إلى الإسلام وسلاحاً عقلياً في الدفاع عن الإسلام؛ فهم رجال دين قبل أن يكونوا فلاسفة، وفي التاريخ تتشابه قيم الأخلاق الدينية والفلسفية والسياسية ويبقى الدين والفلسفة على السواء في محور السياسة فهما خاضعان لها بشكل أو بآخر!!

السياسة باطنة العقل.. العقل يستبطن السياسة.. أم السياسة تستبطن العقل وتديره فكراً وفلسفة وديناً؟!

السياسة العقل والعقل السياسة، وعندما تطغى السياسة على العقل.. يأتي الجنون السياسي عاصفاً من حيث لا يدري العقل...

وقد طغت المصلحة السياسية في دولة المعتزلة الأولى والثانية وكانت الثالثة نهايتها!!

العقل يرفض القيد، فكان الصراع أزلياً بين العقل والقيد.. والغلبة دوماً تكون للعقل الذي تتكسر القيود تحت إرادته.. ولا إرادة لقيد أمام عقل..

العقل صياغة قيد والقيد صياغة عقل... والعقول في التاريخ تصوغ القيود وتحطمها وليست القيود وحدها وإنما الأصنام... إنها أبدية الصراع بين العقل والقيد في السيادة!!

ومن مهازل هذا الصراع... أن العقل يخلق القيد ويبيد مشيئتة كما ينحت آلهته من الصخر ويحطمها أو من التمر ويأكلها!!.. فالإبادة عقل (إذا خلقته بشراً قيداً سوياً) لماذا تبيده؟! في الخلق إبادة وفي الإبادة خلق.. يحيي العظام وهي رميم ويحيلها رمماً!! فلسفة الحياة والموت في نفيها النافي لقيود الدنيا والآخرة في الموت والحياة ترتكب بطش قيدها تجاه العقل المعارض لعقلها وتضعه رهن القيد ومن ثم الإبادة!!

وهي بهذا تسيء إلى العقل الذي تتباهى بعظمة تساميه على الجبرية والقدرية وقدرته التمييزية بين الخير والشر... وترى أن الفكر المعتزلي خروج عن الشر ووقوع أبدي في نعيم الخير!!

وهو ما أتينا على ذكره عند أبي العلاء المعري في تأمله الشعري المعتزلي «كل يؤيد دينه.. يا ليت شعري ما الصحيح».

وعند المعتزلة القرآن والسنّة والإجماع يشكّل حجة عقلية لكونها من العناصر التي تؤدي إلى معرفة الله...

فالأول: «كلام عدل حكيم لا يكذب ولا يجوز عليه الكذب»

والثاني: «لأنها إنما تكون حجة متى ثبتت أنها سنّة رسول عدل حكيم».

والثالث: «لأنه إما يستند إلى الكتاب وإما إلى السنة وكلاهما فرع على معرفة الله». وهذا ما يدلنا عليه القاضي عبدالجبار في شرح المباذئ المعتزلية الخمسة التي أتينا على ذكرها!!

وحتى لو كرس العقل في الإمعان أمام المبادئ الخمسة التي افترض المعتزلة حجتها العقلية في معرفة الله لم تصمد طويلاً أمام البعض من المعتزليين الذين غطوا في كدر مياهها ردحاً من الزمن ثم انتفضوا عليها ونفضوا عقولهم منها وناصبوها العداء. وكان ابن الراوندي وغيره من الذين ظهروا عليها ودانوها وتجاوزوها بإلحادهم...

إن حرية الإرادة التي كرستها الفلسفة المعتزلية كانت منطقاً للآخرين في الذهاب إلى تجاوزها ونقدها والخروج عليها، فالشعور السيكولوجي لدى الإنسان بالحرية ـ كما ترى المعتزلة ـ هو الدليل الخلقي لدى الإنسان بأن يكون حراً في الاختيار وخارج الجبرية وهو ما يؤكد العدل الإلهي... والإنسان مكتسب لهذا العدل الإلهي الذي تشترطه المعتزلة، ويرى الشريف الرضي في تأويل للإمام علي في معنى العدل الإلهي:

«إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً وكلف يسيراً وأعطى القليل كثيراً ولم يصنع مكرهاً» ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ويذهب القاضي عبدالجبار في هذا الميدان قائلاً: «إن الله لا يكلف العباد بما لا يطيقون ولا يعلمون بل يقدرهم على ما كلفهم

ويدلهم إليه ويبين لهم.. ليهلك من يهلك منهم ببينة ويحيا من يحيا عن بينة».

إن حرية الاختيار ما يعني القدر الإلهي نفسه والإنسان خارج عن أي تكليف أو توجيه من أحد إلا توجيه العقل، إن إمامية العقل في الحرية تتجاوز توجيهات إرادة العقل الآخر... فهي حرة في إرادة عقلها، إلا أنها بشكل أو بآخر غير منفصلة عن العقول الأخرى لكون العقول تتأثر ويثري من بعضها بعضاً وكل عقل منفصل إرادياً عن العقل الآخر...

وقد قالت المعتزلة كما ينقل الشهرستاني: «إن الإنسان يحسن من نفسه وقوع الفعل حسب الدواعي والصوارف.. فإذا أراد الحركة تحرك وإذا أراد السكون سكن؛ ومن أنكر ذلك جحد الضرورة. فلولا صلاحية القدرة الحادثة لإيجاد ما أراد لما أحسّ من نفسه في ذلك».

وهو ما يعني أن إحساس النفس واللمس والسمع والبصر من قدرة العقل على الحركة والسكون وهو في سكونه متحرك سميع بصير فاعل في ضرورة حركته وبإرادة عقل الآخر!!

إن إشكالية إثبات القدر أو نفيه إشكالية تاريخية أرقت أذهان فلاسفة ومفكرين ورجال دين على مر العصور حتى يومنا هذا: فللصدفة في ذاتها قدر وللضرورة في ذاتها قدر، وهناك رابط جدلي يربط بينهما. فالصدفة بالضرورة والضرورة بالصدفة ولا يمكن الحديث عن الصدفة خارج الضرورة والعكس صحيح!!

ويرى القاضي الدكتور أحمد الحريثي في كتابه عن المعتزلة «إنه عندما جاء الإسلام كانت مسألة القدر إحدى القضايا التي أثارها مفكرو الإسلام والمتكلمون منهم خصوصاً حين تأملوا الآيات القرآنية فوجدوا فيها ما يشير ويتعرض لحرية الإرادة ومسؤولية الإنسان عن أفعاله نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ وقوله ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ (فصلت الآية 40). ونحو قوله ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ و﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ وغيرها من الآيات الكثيرة التي تشير إلى حرية الإرادة...

وقد احتارت المعتزلة بين حرية الإرادة في آيات قرآنية كثيرة تأخذ بحرية الإرادة وآيات قرآنية أخرى تقيد حرية الإرادة مثل الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أو ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وكان لتأويل النصوص عند المعتزلة مخرج لمبتغى منهجهم العقلي وفقاً لتماهي الإرادة الإنسانية مع إرادة الله.. وتماهي إرادة الله مع إرادة الإنسان.. تماهي عقل الخالق مع عقل المخلوق وهو تماهٍ يشكل زُلال النزعة العقيدية الاجتماعية والسياسية عند المعتزلة!!

وللتماهي العقلي بين الخالق والمخلوق لدى الحاكم المعتزلي بشكل خاص خصوصيته، حيث يكرس إرادة الله في إرادة البشر...

وإرادة الحاكم في إرادة المحكوم وذلك بتسيير قدر الحاكم بقدر المحكوم. وكان هارون الرشيد يهجس إرادة تسيير السحب في إرادته بإرادة الله قائلاً: اذهبي أنّى شئت فإن خراجك سيأتيني.. وكان يحمل بذوراً فكرية معتزلية وإن لم تنضج لديه بعض الأفكار المعتزلية التي كانت تحوم طلائعها حتى في عهده!!

رحمة العقل ولعنة النقل

... وكان يقول: وقد اصطفاني الله عقلاً.. إذ أذود عن رحمة العقل وأرجم ما شئت رجماً مباركاً لعنة النقل..

ولأنه الرحمن الرحيم بعقله في عقلي وعقلي في عقله حيث تتفاعل رحمة الإنسان لأخيه الإنسان رحمة عقل في رحمة عقل باري العقول كلها على وجه الأرض...

العقل امتداد للإيمان... أم الإيمان امتداد للعقل... الإيمان تكون من العقل أم العقل تكون من الإيمان؟!

من الكائن المكون للآخر العقل مكون الإيمان أم الإيمان مكون العقل؟! إيماني كوّن عقلي.. أم عقلي كوّن إيماني؟! إنه السؤال الذي افترض في لحظات تأملاته التأويلية حركة المعتزلة الذهنية!!

وقد رفض المعتزلة أسبقية العقل على الإيمان المقرونة بالنقل والخارجة على إرادة العقل... فكيف أتدبر الإيمان دون عقلي... العقل خالق الإيمان ومدبر الإيمان وباري الإيمان ومنضد الإيمان وفي الأديان طراً على وجه الأرض!!

أولوية النشأة للعقل أم للإيمان؟!

أهناك إيمان نشأ قبل العقل؟! ترى قواميس النقل طراً أن منشأ

العقل هو الإيمان وأن العقل إفراز الإيمان وليس العكس... أو أن الإيمان نشأ عقلاً متزامناً مع نشأة العقل...

إن كل شيء يجوز إيماناً في النقول وكل شيء لا يجوز عقلاً في المنقول!!

وفي التاريخ نشأت الصيرورة مادة متحركة غير عاقلة وعبر حراكها تحولت إلى مادة عاقلة تخلقت في حراك جدلها المادي ظواهر إيمانية للأديان..

وكان العقل لا النقل يشكل حراك العقلي الإيماني لدى المعتزلة في ظاهرة عقول متمردة على النقول ونصوصها المتكلسة في دهاليز التاريخ ...

ومنذ أزل الجدل في التاريخ يوم اهتدى الإنسان البدائي عقلاً غريزياً وليس نقلاً وفق الضرورة إلى العمل ومواجهة الطبيعة من أجل البقاء، كان العقل في ظروف بدائية عمل الإنسان ينمو في العمل وعبر العمل في الانتاج من أجل البقاء في مواجهة كوارث الطبيعة، يومئذ أكان للإيمان لدى الإنسان وجود؟!

أكان للإنسان رب يعبد؟! أم أنها صحوة غريزة الإنسان في الرب!!

وكانت غرائز الإنسان في صراعه للبقاء غرائز تشاكل غرائز الحيوان، يومئذ لم يكن للإيمان ذرّة وجود. وعندما بلغ العقل شأواً من إرهاصات التفكير، يومئذ تخلقت بذور الإيمان في عقل الإنسان وراح يبحث عن الرب (...) يوم لم يكن للإيمان وجود هكذا اهتدى

الفكر المعتزلي إلى فكرة أسبقية العقل قبل الإيمان «قبل الله» وتخلقوا بالعقل في الإيمان ولم يتخلقوا بالإيمان في العقل!! وقد تجادلوا وتطاحنوا جدلاً مادياً وفكرياً واحتكموا إلى منطق الكلام للعبور إلى حقيقة أسبقية العقل على الإيمان.. وكانت فكرة خلق القرآن لديهم تجسد منطق أسبقية العقل على الإيمان والأديان...

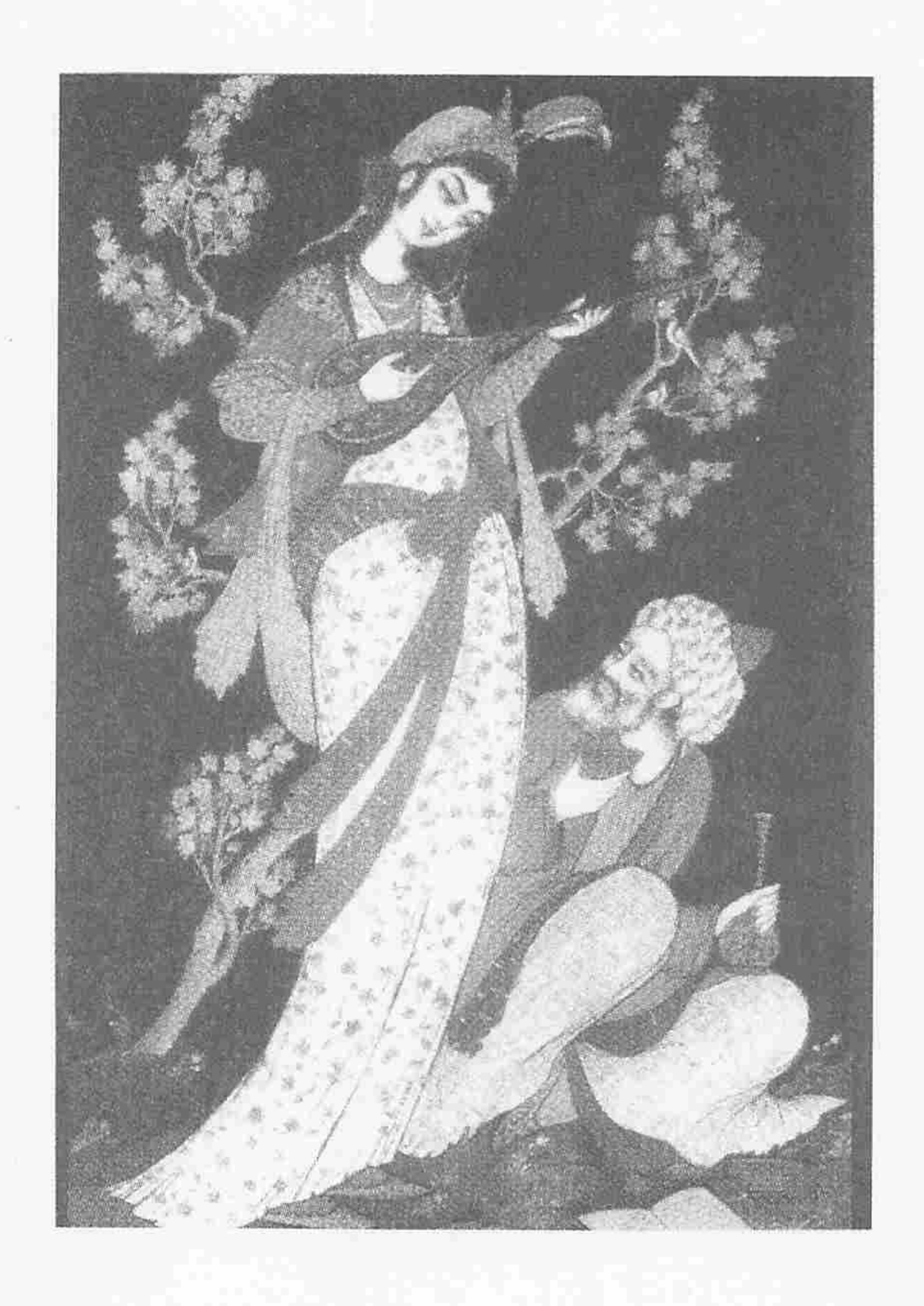
فالقرآن خلق عقلاً كما يرون وليس نقلاً «أو وحي يوحى» ولم تكن اللغة العربية التي أنزل بها القرآن عربياً على سيد الأنبياء إلا واقع مماحكة جينية فلسفية لدى المعتزلة!!

فالعقل هو منضد اللغة ومنضد الإيمان وليس هناك لغة ـ وفقاً لمنطق المعتزلة ـ نضّدت الإيمان في الأديان كحقيقة لها أسبقيتها على العقل الذي نضد اللغة.. بل إن صيرورة اللغة وصيرورة الإيمان والأديان انبجست كضرورة تاريخية مادية جدلية من رحم العقل المكون للغة والدين والإيمان، من واقع منطق تراه المعتزلة في أسبقية العقل على اللغة والدين والعقيدة والإيمان!!

إن تباين الرأي المعتزلي بيّن في رؤى أئمتهم وفقهائهم في الوحي المنقول والوحي المعقول... وإذا كان منقولاً في وحيه فكيف يكون معقولاً، فالوحي بطبيعته يلونه المنقول... ولا لون له في المعقول!!

وكان في مراحل نزوله من الوحي إلى النقل ومن النقل إلى العقل إذا اختلفت. واتفق المعتزلة في تفسير ما رأوه قرآناً مخلوقاً بشرياً لا ربانياً منزلاً، وقد أحدث فتقاً جسيماً آنذاك في المفاهيم الإسلامية. كان

المعتزلة يوحدون ذاكرة الله في ذاكرة توحيد العقل في خالق عقول تتدبر شأن قدرها بقدر عقلها لا بقدر الله دون أن تفصل قدرياً عقل الله عن عقل الإنسان... رافضين مقولة المتصوفة: «اللهم دبرني فإني لا أحسن التدبير». فالله أعطاك عقلاً فتدبر شأنك بعقلك لا بعقل الله وأن تصبح عاجزاً في عقلك وتربط تدبير شؤون الحياة بتدبير الله.. ففي ذلك تحقير بيّن لقدرة العقل في قدرة الله.. إن تحقير قدرة عقل الإنسان يشكل تحقيراً لاإرادياً لعقل الله في الإنسان. ويرى المعتزلة أن النقل يشل عقل الإنسان ويشل قدرة تفكيره على مواءمة عقله لعقل الله!!



في الخلق والتخلق عند المعتزلة

يعرف الله في خلقه ولا يعرف في ذاته، لأن خلقه ضمن معاينة أحاسيس الإنسان في السمع والبصر واللمس وما إلى ذلك.. وأما الخالق فهو خارج الأحاسيس ويعرف ويُعبد من خلال خلقه.. إن خلقه وما خلق برهان لوجوده، فوجوده برهان خلقه وإن براهين خلقه تدرك ولا يُدرك وجوده!! أيكون منتجاً بدون منتوج.. أو منتوجاً بدون منتج؟!

إن لكل خلق خالقاً... فمن خلق الخالق؟! لا وجود لخلق بدون خالق ولا وجود لخالق بدون خلق... الخلق قابل للإدراك... والإدراك قابل للخلق، أما الخالق فإنه غير قابل للإدراك الملموس... الإدراك في حالة ملموسة أم حالة غير ملموسة؟! الخالق يدرك ولا يلمس...

إن إدراك الخالق.. إدراك جوهره... إلا أن جوهره ليس كمثله جوهر، إنه متسامٍ سامق الجوهر والمظهر، إنه نور الجوهر ونور المظهر جلّت عظمته في مظهره وجوهره (فهو الظاهر والباطن وهو على كل شيء عليم). وهو غير قابل لا للمنال ولا للإدراك.. فالربوبية جوهر خلق المخلوقات الظاهرة في شكلها وفي حركتها وتكوينها، أما الجوهر فإنه خالق المخلوقات في ظهور الخلق والاختفاء.. إنه في

اختفاء الشكل والجوهر فهو شكله وجوهره لا جوهر له ولا شكل إلا أنه الجوهر والشكل وكل الأشياء...

فالله يعرف في علاقته ولا يُعرف في ذاته... ويرى أفلاطون أن الله فكرة ولكنه ليس كأي فكرة «إنه فكرة الأفكار» والله الذروة الجامحة لكل الأفكار.. أما أرسطوطاليس فيرى «إن الله علّة العلل ولكنه لا يتحرك» إنه السبب الجوهر لكل الأسباب!!

أسبب هناك خارج العلة... وعلة هناك خارج السبب؟!

فالمعتزلة وحدهم من المسلمين الذين أخذوا يقلبون الخالق في مخلوقاته تبعاً لحيثيات فلسفية ـ دينية، حيث اعتزلت نظرتهم نظرة جمهور المسلمين وأئمتهم ودعاتهم وفقهائهم، فالفلسفة عند عامة المسلمين وأئمتهم «زندقة». من تمنطق أي تسلح بالفلسفة «تزندق»، خلاف المعتزلة الذين يُعملون العقل في تأمل الحياة في الخالق والمخلوق ويديرونه عقلاً لا نقلاً ولا وحياً. إنهم يحركون سكون وركود المفاهيم الدينية وينفضونها من تخشبها وتكلسها بعقولهم ويُمعنون في تحريها فلسفياً وفق المنطق في الحياة والدين، وهم ينحازون إلى نظرة أرسطو كون الله «علة العلل» ولكنه لا يتحرك قدراً في قدر الإنسان، إنهم يرون أن كل شيء يتحرك بالعقل «حرك عقلك يتحرك الكون»؛ فالله عقل العقل كيف له أن يخلق الكون وهو لا يتحرك: إنه يتحرك ويحرك مجمل الكائنات بحركته «خلّت حركته»

على وجه الأرض والسماء في ذاته وبذاته خلاف المسيحية التي ترى على لسان المطران اللبناني جورج خضر:

«إن الكلام في ذات الله غير وارد في المسيحية الشرقية إذ يقول عنه تراثها: إنه فائق الجوهر وغير قابل للإدراك وإدراكه هو الوصول إلى جوهره وإذا وصلت إلى هذا تصيّره فيختلط الخالق بالمخلوق وهذا محال. ومع هذا ينبغي أن تتصل فإذا انتفى هذا تنتفي الربوبية فبلا تواصل الرب ربُّ من يكون».

إن أسماء الله تنم عن صفاته في ذات الاقتدارات الكلية في عرفانية الخلق وفي وحدانيته: ما يعني توحده في خلق الكائنات على وجه الأرض والسماء لا شريك ولا مساهم ولا مساعد ولا ناصح ولا موجه له في صمدية تفرد إرادته في تفرد «كن فيكون». وهو الكائن قبل الأزل (كائن قبل الأزل) تنافرت الآراء المعتزلية تجاهه... وتقافز البعض إلى دوائر الإلحاد مثل «ابن الراوندي».

وتشكل الوحدانية روح الخالق في خلقه كونه لصيقاً بخلقه يُدير بحركته كل ما يدب على الأرض وفي السماء وهو السميع العليم: «يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في ظلمة الليل».

واختلفت المعتزلة في أمره كون سمعه في علمه أم علمه في سمعه وتصّوب الخلاف كون سمعه في علمه وعلمه في سمعه وصفاته تتجلى في ذاته مروراً بتطوافه على خلقه..

فالله المحبة لم تدرج في أسمائه الـ (99) بالرغم من بعدها

الروحي في روح الحياة كلها كونها المحرك الأزلي بين الخالق والمخلوق في مجمل الأديان السماوية وغير السماوية وفي المفاهيم الفلسفية الإنسانية. و(المحبة) عند المسيحية صفة من صفات الله.. بل الرب في صفاته!!

ويرى المطران اللبناني جورج خضر: «إن المحبة ليست صفة من صفات الله.. هي اسمه هي إياه، إنها تعطي مضموناً لكلمة الله وتعبّر عن حركته بالمسيح وبالقداسة.. المحبة هي البداءة في الأب التي منها جاء الابن والروح القدس.. الأب هو الكائن قبل الأزل وهو مع ابنه وروحه في وحدانية هي المحبة..

والوحدانية عمق الإله وليست رقماً ولا يقع عليها الحساب.. المحبة هي الوحدانية المتحركة التي تحيي البشر والله لصيق بالبشر منذ خلقهم وهم به يقومون إذا أحبوه وأحبوا بعضهم بعضاً فإذا سكنوا فيه يكونون ساكنين في الله».

كيف السكون في الله وهو المتحرك محبة في جوهر المحبة؟!

التأمل عبر العقل وليس عبر الروح... أتأمل عبر الروح؟! يُدخل الريبة في وعي الإنسان - كونها تعيشه - تجاه ما يقبله العقل وما لا يقبله العقل.. إنه يُربك روح سكون المحبة في التأمل في سكون معاشرة الله واستجلاء روح الخالق في المخلوق: لا معقول الخالق في معقول المخلوق!!

من ذاق حقيقة المحبة في ملكوت تأمل العبادة تلمّظ طعم الله

في روحه.. ما طعمه... ما لونه... ما رائحته... ما لمسه... ما حدسه... ما كنهه... ما صفاته... ما سكونه... ما حركته... يدرك ذلك كما يرى المعتزلة إذا تماهى المرء مع محبة الله بشرح العقل لا بشرح النقل... عشرة العقل لا عشرة النقل في الله.. «فلا يعوزهم إلا أن تسكنهم ويسكنوا إليه فتزول الهوة بين السماء والأرض» كما يقول المطران خضر. العقل مسكون بالمحبة والكراهية امتداد للمادية. الخير والشر في صراع الحياة حيث منابت المحبة والكراهية في النفوس بتأثير العقل فما استحالة إزالة الهوة بين السماء والأرض.. من واقع أن الأرض في حاكمية وهم السماء وليس العكس.. والأرض في متناول العقل خلاف السماء المسكونة بتناول غيب الأديان ووحيها!!

وكان الخلاف يأخذ مداه في عمق الفكر المعتزلي: الحقيقة لصيقة البشر والبشر لصيقو الحقيقة في محبتهم وكراهيتهم، في خيرهم وشرهم، أم في محبتهم وخيرهم؟! ومن المسؤول عن كراهيتهم وشرهم؟! هم وحدهم دون غيرهم خارج إرادة الله!!

فالمحبة هي النقيض الأزلي للكراهية.. وتدخل الآية الكريمة على الخط: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ فيما فسّر ذلك المعتزلة.. هو في خيره وشره لصيق بخلقه.. وهل يكون خالق إلا وله صلة بخلقه؟! تبارك في خلقه وتبارك خلقه فيه شراً وخيراً تماماً كما تلتصق أسماء المكتشفين والمخترعين بما اكتشفوه وبما اخترعوه!!

العبادة معاشرة الله في تأمل خلقه إذا جسّد ذائقتها المتعبد في

ذائقته العبادية «يصبح عشير الله».. نحن في معاشرته في الكلمة التي ينطق بها فينا ونصبح إياها ويصبح إيانا فإذا بمعاشرتنا الله نغدو روحاً واحدة معه كما يقول ـ بولس ـ ولا نبقى مشتهين لغير وجهه هذا الذي ما تقناه ترتسم علينا أنواره!!

اشتهاء الروح للروح في المحبة، اشتهاء روح المخلوق لروح الخالق واشتهاء روح الخالق لروح المخلوق، ما طعمها وما لونها وما صفاتها وما أحاسيسها؟!

وكأن المطران خضر يستجير المعتزلة في نفي النقل بالعقل قائلاً: «لا تبقَ أسير كلمات مألوفة تنتج فيك الموت الروحي.. لا تنظر إلى الله معاقباً كشرطي أو باعثاً إليك بأمراض أو قاتلاً. إياك بحادثة على الطريق» وفي ذلك نفي العقل كما تنفي المعتزلة «وبالقدر خيره وشره».

ويضيف المطران جورج خضر: «أنت تموت بسبب من الخوف.. والخوف يجعل الله عدو الحياة.. الحياة في معناها الجسدي والروحي هبة من الله ليس فقط منذ خلقه إيانا ولكن باستمرار محبته جيلاً بعد جيل.. ليس الرب ما يصوره الإنسان. هو يصور الإنسان ولذلك الخطأ في أن نرى إلى صفات البشر السيئة ونعكسها على الله كإرادة الموت.. أنا أعرف ناساً ينسبون إليه تصميم أذى حل بهذا أو ذاك.. الله لا يؤذي أحداً ولا يدخل جرثومة في إنسان كل ما يصدر عنه خير أو صلاح وحق وإحسان.. الرب نقي ويجب أن تنقي عقلك من كل ما يسيء إلى إقبالك عليه لأنك لا تكون قد استمتعت بالمحبة التي تنزل عليك منه

ولا يمكن لمخلوق أن يتنقّى وينقي عقله من سيئات ما علقت بها نفسه إلا من خلال العقل لا النقل.. النقل لا ينقّي حتى وإن كان في قدسيته الدينية.. لأنه إذا لم يغربله العقل لا يصل إلى برهانية حقيقته العقلانية في معرفة نقاء الربوبية بأن الله لا يؤذي أحداً ولا يدخل جرثومة في إنسان وأن كل ما يصدر عنه خير وإصلاح وحق وإحسان»

قيمة الحواس في التفكير: أنظر وأفكر وأسمع وأفكر أشم وأفكر ألمس وأفكر أحس وأفكر أعبد وأفكر أحب وأفكر.. أي قيمة للحب بلا تفكير.. إنه الجنون بعينه.. المجانين وحدهم لا يحبون(!!!) أليسوا بشراً...

«مجنون ليلى» في شخص قيس بن الملوح... من اخترعه؟!

الخيال... إذن الخيال زفير العقل لدى الإنسان في البحث عن الحقيقة!!

حواسي في عقلي.. أم عقلي في حواسي؟! من ينظم ويُفعل فكر الآخر.. الحواس أم العقل؟! الحواس في العقل أم العقل في الحواس.. الله في الحواس أم الحواس في الله... الله حواس أم عقل هكذا كان هجس المعتزلة في علم الكلام لديهم!!

«الفكر قبل ورود السمع» أسبق تفكيري بصري... وأسبقه لمسي... وأسبقه حبي... وأسبقه عناقي... الحب عناق جسد أم عناق فكر أم عناق روح؟!

التفكير حب.. أم الحب تفكير؟! التفكير هيام أم الهيام غرام

الحب والتفكير.. التفكير روح الهيام في حب هيام الفكر في الجسد أم هيام الجسد في الفكر؟!

أسبق تفكيري هيامي.. أم سبق هيامي تفكيري؟!

الهيام يجسد تفكير الإنسان في الإنسان.. أم تفكير الإنسان يجسد الهيام في الإنسان!!

الهيام بلا تفكير يفقد الإنسان العقل وكان قيس بن الملوح هائماً عشق ليلى بلا عقل.. لقد أفقده هيام الحب روح عقله.. إن روح العقل التفكير... والعقل الذي لا يفكر عقل سالب لا نبض ولا روح فيه... ولم أر عقلاً ساكتاً.. العقول تضج نبضاً بوعي الحركة في أفكارها وسمعها وبصرها وشمها ولمسها وفي مجمل أحاسيس خلق الله!! العقول أحاسيس تحرك أحاسيس العقول الأخرى عقلاً.. عقلاً.. وفكراً.. فكراً صعوداً حتى الله هكذا.. يحول المخلوق المعتزلي الخالق على إيقاع درجات العقل درجة.. درجة ويلتحم معه عقلاً يدير عقله في عقل الله!! أم شعراً مجنوناً بلا عقل... وتراه يسأل مُتجلياً قدر الله في وصل ليلى...

سألت الله يجمعني بليلى ويدخل ما يشاء بما يشاءُ
ويأتي من يحرّكنا بلطفٍ أليس الله يفعل ما يشاءُ

«...........»

وينزل بعد ذا مطراً غزيراً ويُطهرنا وقد زال العناءُ(!!)

وكان مجنون ليلى يتأول المستحيل شعراً في عناق الحبيبة في

تحقيق أمنيته تأولاً في مشيئة الله!! وكان قيس بن الملوح يسأل الله عقلاً...

فالعقل أمنية اكتشاف وبحث وتنقيب وحراك تاريخ البشر في ديمومة وعي الأبد إلى أبد الآبدين!!

والقيامة تقوم من سباتها يوم يكف العقل عن التفكير.. وكلما استيقظت القيامة في النقل انهال عليها العقل بصواعق التفكير في التاريخ ...

لا تاريخ حقيقياً للنقل... لأن تاريخ النقل يقوم على مرتكزات عنعنة النقل في تزييف التاريخ وإغراق العقل في النقل ودفعه في عمق الميثولوجيا...

وكنت أهجس أمام المعتزلة واصل بن عطاء مشرئب الرقبة وهو يزيل عمامته من على رأسه فتلمع صلعته وردية مبللة من التأويل ويضغط على حاجبيه المعقودين بسبابتيه ويهرش لحيته ويرفع رأسه ويمط شفتيه.. ما الوحي؟! الوحي وصل الفكر بالفكر وتلمّس الفكر... الفكر... دعوة الفكر إلى جلب الفكر!!

الوحي خارج الفكر والعقل أم الوحي ضمن الفكر والوحي... كيف يكون وحياً يُدرك بعقل... إذا كان خارج الفكر والعقل... الوحي لا يدرك إلا بإخضاعه تأملاً عقلاً وفكراً وخيالاً!!

ولا يمكن استيعاب الوحي إلا بإخضاعه للعقل والفكر واستخلاص قيمته المادية والفكرية في وحي الوحي أو قول القول أو

كلام الكلام، بهذا يصبح كلاماً لا وحياً وضمن سياق مثل هذا التفكير المعتزلي تأتي خشية الحُسب المتاجرة بالنقل عبر التاريخ.

إنهم يريدون أن يُبقوا على النقل ـ الوحي في ملكوت قدسيته... ولم تكن القدسية في التاريخ وعبر التاريخ إلا حجاباً بين العقل والنقل في صيرورة تاريخية النقل في نقض العقل... ولكن من أين أتى النقل... ألم ينفجر من عمق العقل في عمق التاريخ من وحي الله في الرسل والأنبياء، يتأمل المعتزلة الحالة التأويلية في هذا الصدد..

النقل ثابت أكان نقلاً أم منقولاً.. والعقل متحرك أكان عقلاً أم معقولاً.. ويأتي الخلاف صارخاً في تجريد النقل من العقل وإبقائه في نقله ثابتاً متجذراً في منقول تاريخية أزمنة نقله!!

النقل من النقل.. أم النقل من العقل؟! نقل فكر العقل أم نقل فكر النقل.. إمعان العقل في العقل أو إمعان الفكر في الفكر (في النقل وفي العقل) على السواء.. وينصب التمسك بأولوية النقل على العقل.. فالنقل (الوحي) والعقل (المعاملة) من يسبق من؟!

الوحي أم المعاملة.. الوحي ضمير المعاملة أم المعاملة ضمير الوحي؟! وكما في الدين كذلك في الفلسفة... الدين فلسفة الحياة في المعاملة أم في العبادة؟!

الدين فلسفة الحياة في المعاملة أم المعاملة فلسفة الدين في الحياة؟! الدين معاملة النقل في العبادة والعبادة معاملة العقل في الحياة...

الدين ثابت في معاملة النقل والمعاملة متحركة في العقل والدين والمجتمع!! ويشق المعتزلة شرعية حاكمية النقل على العقل في الحياة، ويذرون كل شيء خاضعاً للعقل وليس لعنعنات الميثولوجيا الدينية النازفة بأوهام معرفة الوجود في التاريخ!!

المقدس والجن عند المعتزلة

القداسة لله وحده ولا يمكن إدراجها لمخلوق مهما بلغ من العلم في الدين وبهاء الأخلاق في الاستقامة والعبادة... والقداسة صفة الذات الإلهية وليس البشرية وهي حالة ترسل في السمو الإلهي سمو الخالق وليس المخلوق!!

وقد جسد المعتزلة نظرتهم بين المسير والمخير.. فالقداسة لا تسير أحداً إلى الكراهية لأنها نقيض الكراهية والله يكره الكراهية والكارهين ولا يُسيّر أحداً إلى الخطيئة وفعل الشر وهو العزيز الخيّر المتسامي في قداسته عن أن يدفع أحداً إلى الخطيئة، وقد نفى المعتزلة الجبرية الإلهية في قداستها من عمل الإنسان فما يعمله من خير بحكم القداسة فمن عمل الله، وما يفعله من شر فمن عمل الإنسان وحده وليس من عمل الله، ولا من عمل الشيطان، فالشياطين والجن لا مكان لهم في قواميس المعتزلة، وقد قال الشيخ القاضي المحسن التنوخي (384هـ) إن «من بركة المعتزلة، أن صبيانهم لا يخافون الجن».

إن أبناء المعتزلة لا يخافون الجن كما يُعنون لنا رشيد الخيّون في كتابه (معتزلة البصرة وبغداد). وكانت ثقافة الجن تساكننا أطفالاً

وكانت فرائصنا تصطك خوفاً وكانت اشباح تتماثل أمامنا ليلاً وأحياناً نهاراً ومظاهر غريبة نحسبها شياطين وما هي إلا مظاهر أوهام لا أساس لها في الواقع كرستها ثقافة الجهل منذ الطفولة في نفوسنا حتى أصبحنا نحسبها حقيقة.. وهناك مسميات شيطانية يخوفوننا بها مثل (أم الخصف والليف) و(أم حمار) و(ساحرة القايلة) و(السعلوة) وما إلى ذلك من أسماء الأشباح والجن والشياطين التي يخوفوننا بها أطفالاً لكي نمتثل لتوجيهات أسرنا في الذهاب والرواح والدخول والخروج من البيت..

فالجن يسكنون معنا ولكننا لا نراهم إلا أننا نحسهم ونسمع أحياناً جلبة حركتهم وصياحهم أو هكذا يتمثل لنا... وهذا رجل مسكون بالجن وهذه امرأة مسكونة بالجن (يا إلهي) وفي حالات يواقع الجني امرأة ويقضي منها وطراً وهي لا تستطيع عصيان أمره... وأحياناً تنتظره في الليالي المقمرة على أحر من الجمر (ما أحره قالت إحداهنّ لزميلاتها فقد خلق من النار).

الجهل يكون الخوف والخوف يكون الجهل.. والشياطين والجن نتاج الجهل والخوف.. فالعلاقة بين الخوف والجهل تكوينية ثابتة في الحياة وجليّة لدى الجهلة والخائفين من أبناء البشر... من جهل الشيء خافه ومن خافه جهله!!

والمثل الشعبي يقول «اللي يخاف من الضبع يطلع له». تماماً، فالذين يخشون الجن نراهم «يرونه» ويتخيلونه ويعيشون معه ويعيش

فيهم... يساكنونه ويساكنهم. رجل مسكون بالجن أو بيت مسكون بالجن حتى بعض الحيوانات يسكنها الجن ويتمثلون في هيئاتها!!

العقل يدل على المعرفة ومعرفة الأشياء في الحياة وخارج الحياة في محيط المعقول وخارج محيط المعقول... ويرى المعتزلة أن الجهل والخوف والجن والشياطين وما تلاها من الخرافات والخزعبلات ارتحلت في الحياة وسكنت النفوس و«العقول» والأرواح من خلال تاريخ نص النقل وتناصه في الحياة من نص نقل إلى نص نقل آخر... ولأن الأب والأم المعتزليين يساكنان العقل ولا يساكنان النقل لم يخشيا الجن وكان أطفال المعتزلة لا يخشون الجن أيضاً!!

(ولكن جرى في لطيف الكلام   كـــلام خـفـي وعـــلـم غـزيـر)

لا لطف ولا علم غزير في ما يخفيه النقل وإنما غزارة العلم ولطف الكلام في العقل الذي ينطق حقيقة الواقع الملموس ويتأول ما يلامس المعقول ويرفض خرف المنقول فيما يتصوره من الجن والشياطين!!

أرى الناس قد أغروا ببغي وريبة   وغـي إذا ما ميز الناس عاقلُ
وقد لزموا معنى الخلاف فكلهم   إلى نحو ما عاب الخليقة مائلُ

إن الخوف من لا وجود له من الجن والشياطين كما يرى الشاعر المعتزلي ابن دريد اللغوي هو الغي الذي يميز البغي والريبة في المعنى الذي يعيب الخليقة من وجود الجن ومن عدمه... إذا كان لهم وجود مادي أم وجود روحي وجود عقل... أم وجود نقل...

وإذا كان (الكلام حروف غير مسموعة على الكتابة) كما يقول

المعتزلي يوسف الشحّام فهل الجن واقع غير ملموس ومدرك في الواقع؟!

وهل هناك أشياء غير ملموسة وغير مدركة في الواقع؟!

أهناك أشياء كثيرة غير ملموسة وغير مدركة في الواقع!! والعلوم والمعارف البشرية تتوثب لاكتشافها والوقوف عليها... وكانت المعتزلة السباقة بالعقل إلى اكتشاف ما تستنزفه أساطير الجن والشياطين على وجه الأرض!!

ولا يهم إن كان جنياً أم إنسياً متلبساً بالجن...

لقد طرد المعتزلة من بيوتهم ومن بين أسرهم ظاهرة الجن من نفوسهم ومن نفوس أطفالهم إلى أن أخذ البعض العجب بأن أطفال المعتزلة لا يخافون الجن... وقد لعبت الثقافة المعتزلية دوراً يجدر التفكير فيه بهذا الخصوص في تنشئة الطفولة ونموها خارج إرهاصات الخوف من الجن منذ نعومة أظفارها!!

وإنه لمن المحزن حتى يومنا هذا أن نرى بعض الفضائيات تكرس لثقافة الجن والشياطين وتلعب بعض القراءات والتعاويذ في طردها وإبعاد شرورها أكانت داخل الإنسان أم خارجه!!

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ (الجن: 1-2).

والشياطين: منهم المؤمن ومنهم الكافر ومنهم الطيب ومنهم الخبيث ومنهم الشجاع ومنهم الجبان ومنهم الخسيس ومنهم النبيل

ومنهم... ومنهم... حتى حسبت أن في ذلك ما يجسد طبائع البشر... والجن خافية البشر في وعي باطن النفس وحدها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ (الشمس: 7-8). فالجن كما ترى المعتزلة في إلهام شطر فحوى فجور النفس... والتقوى في شطر فحوى الإلهام الآخر من النفس وهو ما يرتبط بإرادة المخلوق في شرط الاختيار وحده وليس الجبر... من عقل إلى عقل: هكذا تتأول المعتزلة معاني الكلمات في العقول من وجهة نظر إلى وجهة نظر أخرى... فالعقول تتفاوت إضاءاتها في معنى الكلمات!!

والنص لدى المعتزلة ثابت ومتحرك أما معناه فمتحرك ولا ثبات للمعاني في النصوص لدى المعتزلة.. المعاني تجادل النصوص وتتأولها... معاني النصوص تستضيء وتضيء العقل والعقل يستضيء ويضيء النصوص.. وتصبح الإضاءة واقع تحريك النص وتحريك معناه!!

لقد توصل المعتزلة أنه لا ثبات للنص ولا ثبات لمعنى النص. فالنص في معناه وبدون معنى لا قيمة له وهو في علاقة جدل بالمعنى من عقل رجل وامرأة، فالعقول لا تتساوى في رؤيتها تجاه النص وتجاه معنى النص... والعقل غارف من النص والعقل محرك النص في معناه ومبناه!!

كل شيء لدى المعتزلة يخضع للعقل والعقل مرشد المعتزلة وإمامها ومُهديها إلى ماهية النص ومعنى النص...

كل شيء في الحياة نصوص والحياة تتشكل في نصوصها..

والنصوص تتشكل في معانيها والعقل في إيمانية وحيثية المعقول.. وما هو خارج المعقول في برهانية نمطية الجن إذ يقع ضمن ازدراء المعتزلة لظاهرة الجن والشياطين ويذرونها في مزابل أساطير التاريخ التي أفرزتها لوذات النقول في العقول: من لوذة نقل إلى لوذة نقل أخرى!!

العقل السيد والعقل الإمام والعقل الموجه والعقل المنظم والعقل المكتشف والعقل الآمر الناهي والعقل خالق الخوارق من المعجزات والعقل الوجود والعقل الذي تكون في الله والعقل يشكل إرادة الإنسان في اكتشاف إرادة المجهول... عندما وضع أرمسترونغ قدميه على سطح القمر قال: «إنها خطوة صغيره للإنسان لكنها عملاقة للبشرية». حقاً إنها عملاقة على طريق الاختراعات والاكتشافات المادية والفكرية للعقول!!

وفي حوار أجرته إذاعة القاهرة مع الأديب والروائي الشامخ نجيب محفوظ، وقد سئل يومئذ ما هو أهم اكتشاف للإنسان قال: (الله) فما كان من سائله إلا أن يردد تلقائياً الله.. الله!!

وكأن رؤيا المعتزلة تشاكل رؤيا المسيحية في خصوصية نورانية الله وقداسته.. من واقع أن علم الكلام عند المعتزلة يجاذر في التاريخ علم الكلام في اللاهوت المسيحي.

ماذا يعني قدوس: التفرّد والانفراد المنزه العالي غير المدروس وهو معتز متفرد القداسة في العلو والتسامي.. والقداسة تعني الحصانة

من الخطأ والتنزيه من الشر ومن الظلم؛ وهو قدوس لأنه يكره الخطيئة كراهية مطلقة فالكراهية كالنار الآكلة كل شيء!! ولا يمكن لمجد مهما بلغ في مجده أن يعلو على مجد الله.. فالله يعرف بنور مجده تبارك وتعالى في سمائه!!

والعامة تقول: الله ما شفناه بالعقل عرفناه... إلا أن المعتزلة تؤول نورانية الله كنص قدسي في نورانية العقل وتُحيله تأويلاً نورانياً في نص معناه.. جلّ وعلا قدرة واقتداراً؛ فالعقل المؤول ضمن قدرة واقتدار الله.. كوناً... وكما ترى المسيحية: فالله هو نور ساكن في نور يتشكل من نور ويتحرك في نور صفاته من نور وهو القدوس الساكن في نور...

العقل الأصل والفكر قبل ورود السمع!!

هل كان للشيء أن يكون شيئاً قبل أن يكون له مكان في العقل... العقل مكوّن الأشياء ومكتشف الأشياء وخالق الأشياء.. العقل غربال كل شيء.. الغربال في العقل أم خارج العقل أم قبل العقل أم بعد العقل.. الغربال تحريك الأشياء... الغربال يحرك الأشياء والأشياء تحرك الغربال في العقل وخارج العقل، أصل العقل غربال.. وأصل الغربال عقل... الغربال يؤصل العقل أم العقل يؤصل العقل أم العقل يؤصل الغربال... كانت المعتزلة تشايع ديكارت أو كان ديكارت يشايع المعتزلة «أنا أفكر إذاً انا موجود» أوجود قبل الفكر؟! العقل وجود قبل الفكر لا فكر بدون وجود عقل.. ولا عقل بدون وجود فكر...

أكان الله يوم أن تكون العقل وتنامى الفكر.. أم كان قبل العقل وقبل تنامي الفكر معاً؟!

قبل أن أفكر في الله لا وجود لله عندي... إلا أنه موجود... أأنا موجود عنده أم أنه موجود عندي.. أم أنه موجود عقلاً وفكراً في العقل والفكر قبل الفكر والعقل!!

أعقل الشيء أي إني أوجده في عقلي أكان موجوداً أم لا وجود له.. العقل يتعسف الوجود والوجود يتعسف العقل، هذا التضارب في فكر

المعتزلة جعل منهم من يخرج متطرفاً على فكرهم فيرجمونه بالإلحاد ويدفعون به خارج عقيدتهم الإيمانية وخارج الحلبة المعتزلية... هم أول من كرّم ونهض بالعقل في الإسلام.. إلا أنهم استبدوا به عقيدة ضد العقول الخارجة على حلبتهم العقلية المعتزلية.. إن أشد الطغيان طغياناً هو طغيان العقل ونشر طغيان أفكاره المدججة بطغيان العقل.. وليس من نبل العقل ولا من كرمه ولا من حكمته ولا من رحمته ولا من لطفه ولا من تسامحه أن يخرج عفواً من عقلانية نصه إلى جنون فطنته... إشكال العقل في نزعة فطنته التي تبلغ به حد الجنون وتخرجه عقلاً من عقلانية نصه إلى جنونية نصه.. فالعقل في تناص نزعة فطنة دافع حركته.. والفطنة تشكل الموج الذي لا يهدأ موجاً متلاطماً في وعي العقل!!

ليس كمثله شيء... يعني أنه شيء... إلا أنه ليس مثل الأشياء الأخرى... خواصه مختلفة عن خواص الأشياء الأخرى...

إذن ما هو هذا الشيء؟! كيف يمكن إدراك هذا الشيء... كيف يمكن مشاهدة هذا الشيء... شيء لا يُرى... ولا يمسك ولا يدرك... يا له من شيء!!

لنقترب من هذا الشيء... كيف يمكن الاقتراب منه.. وهو في وجوده... وليس في وجودنا... نبحث عنه في وجودنا عبر وجوده.. نتلمس كونه في كوننا.. ألكونه كون في كوننا؟! أكوننا في كونه.. أم كونه في كوننا؟!

وكان السؤال يأكل عقل المعتزلة...

وقال قائلهم... علينا أن نتلمسه في مصحف أقواله... ومن أقواله نعرفه ونهتدي به وإليه... وضعوا المصحف بين أيديهم بلا وضوء... وضوء العقل أم وضوء الجسد... وأشبعوه تأملاً وأمعنوه عقلاً... وإذا به يتشاكل عقله لغة من خصائص لغة عقل نظم الحياة... وتبينوا فيما بينهم أنه قول مخلوق وليس قول خالق... وكان العقل المعتزلي ما برح يبحث في الوصول إلى هذا الذي ليس كمثله شيء...

وضعوا أسماءه الحسنى الـ (99) في عقولهم سُلماً ونافذة للوصول إليه .. الوصول إليه بالعقل أم بالخيال(؟!) فاختلف أئمة المعتزلة فيما بينهم، بعضهم يراه بالعقل وبعضهم يراه بخيال العقل... بالعقل يصبح حقيقة... وبخيال العقل يصبح حقيقة خيال.. وبين الخيال والعقل حقيقة خيال... خيال حقيقة وحقيقة خيال...

بعضهم يمد سجادة صلاته ويضع أسماء الله الحسنى بالترتيب على لسانه، يغيب في ذاته لاهجاً بها متصوراً أنها تأخذه صعوداً إلى أن يتماهى حقيقة خيال في ذات الله... ويفيق يسأل نفسه منهكاً على سجادة صلاته... أخيال ذات.. أم ذات خيال؟! ولم يقبض من فيض ذات تهدجه إلا فيض ذات خيال!!

يتهدجون تسعة وتسعين اسماً كل اسم له صفة مقدرة تغاير الصفة المقدرة الأخرى... وعلى إيقاع أسماء الله الحسنى يحاولون الوصول

إلى كرسي عرشه... يا لسعة كرسي عرشه... ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (البقرة: 255). يا لعظمة حجم مقعد يسع السماوات والأرض؟! هناك بعيداً عنا وعلى عرشه وفي السماوات السبع... يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في ظلمة الليل... أيسمع وجيب قلبي ـ يقول المعتزلي ـ المأخوذ بالتصوف... يجس وجيب قلبه طلباً للرحمة والمغفرة الحسنة وكانت الحمى ترجف جسده الخاوي الممدد على الفراش ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ (الشعراء: 80) أيمرضني ليشفيني.. أم يشفيني ليمرضني؟! أهي حالة عبث؟! أفي خلقه عبث... أمن عبث في الخلق والتكوين والكون؟! جلّ وعلا ربي عن العبث!! ومازال السؤال يأكل عقل المعتزلة...

أتتحدد عظمة خلق الكون على الأرض وعلى السماء بكلمتين: (كن فيكون).. يعجز العقل عن استيعاب إعجاز الإعجاز... ويسهل على النقل استيعاب إعجاز ما عجز عنه العقل... العقل الإعجاز.. أم الإعجاز العقل؟! أم العقل إعجاز النقل.. إن النقل إعجاز العقل؟!

العقل وشائع من كرات خيوط دقيقة متداخلة متشابكة تعصف بالأفكار وتصل بها حتى نهاية مطافها في خروج العقل على النقل والوصول إلى نتيجة يحددها العقل المعتزلي بأن القرآن إفراز عقل مخلوق وليس إفراز عقل خالق!!

أخلقه الخالق في عقل مخلوق وتكونت آياته عقلاً في مخلوق دون خالق.. أهناك خالق بدون مخلوق... أو مخلوق بدون خالق؟!

أم المخلوق والخالق من خلق مخلوق وكأن المعتزلة يتأولون خلق القرآن من مخلوق... وكان في التاريخ وليس في القدم... وكل ما في التاريخ مخلوق في كلية خلق الخالق!!

الكلمة عند المعتزلة

الكلمة... تستقر في العقل تضيئه والعقل يستقر في الكلمة ويضيئها!! تتشكل الإضاءه في معنى الكلمة وتتشاكل إضاءة الكلمة في إضاءة الكلمة في إضاءة العقل ويستضيء المعنى في الكلمة ويتضارب معنى إضاءة الكلمة ومعنى إضاءة العقل... ولا قرار للمعنى في الكلمة أمام تأويل العقل.

إن للكلمة جلال قدسية برهانية بدئها في الخلق والإبداع في سيرورة الحياة.. من واقع أن (غفرانية) الترسل الإلهي من عند الله بدأ بكلمة «إقرأ» وفي فلق العهد القديم كان عطر الوجود تشكل «في البدء كان الكلمة».

فالكلمة في قدسية عقلانية تشكلها في فلق الأزل في عقلانية تشكلها في الوعي... والوعي حضور عقل... والعقل مؤوِّل مخضرم للوعي وهو يضج بأبدية إيقاع التأويل... والتأويل يتماهى تأويلاً في أزل الوجود!!

الكلمة عقل: وكلم الله موسى تكليماً أي كلمة عقل بعقل وليس نقلاً بنقل ولا وحياً بوحي!!

وأحسب أن لفكر المعتزلة دبيباً يأخذ ترسله في العقل العربي

التنويري حتى يومنا هذا من واقع البنية القاعدية التي أخذت بها المعتزلة في رفض بنيوية النقل وتكريس بنيوية العقل تأويلاً لجميع نصوص الحياة المادية والمعنوية.

إن دبيب الفكر المعتزلي يأخذ طريقه حتى يومنا هذا في الثقافة والنقد والإبداع لدى المثقفين والمفكرين العرب.

وهذا شاعر مصري فذ... يضج بشجن معنى الكلمات في عذب الكلمات ويفقأ عين طاغوت الميتافيزيقيا بوعي الكلمة في معانٍ عذبة بالكلمات وضد ظلام النقل البليد المتستر خلف الدين!!

«لا تسألني إن كان القرآن مخلوقاً أم أزلي!!

بل سلني إن كان السلطان لصاً أم نصف نبي..»

ويضعك الكاتب السعودي مشعل السديري في شيء من تساؤلات المعتزلة عن دفع المعقول في اللامعقول ودفع اللامعقول في المعقول محاولاً إخفاء النقل في العقل وإخفاء العقل في النقل كي لا يمسك به معتز لا بعقله على شيء من التراث المنقول..

وتحت عنوان (أقـول.. وأقـول.. وأقول) في جريدة (الشرق الأوسط) اللندنية:

«قرأت لأحد المشايخ المرموقين وصفاً مفصلاً للملائكة وقال عنهم.. إنهم ذو أجساد لطيفة أعطيت لهم قدرة هائلة على التشكل بأشكال مختلفة وهم لا يدخلون بيتاً فيه رجل جنب وسكران أو متضمخ بالزعفران أو به كلب أو جرس أو صورة أو تمثال والحمد لله

أن بيتي ليس فيه (97 %) من هذه الأشياء كما أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزاوجون وكل هذه استوعبها ...

غير أني لأول مرة أعرف أن (جبريل) له ستمئة جناح وكل جناح منها يسد الأفق ويسقط من أجنحته (التهاويل) حسب قول الشيخ الجليل لا قولي أنا وهي التي يتساقط منها طوال الوقت الدرر والياقوت..

الواقع أنني بعد أن قرأت هذا الوصف الرائع لم أملك إلا أن أردد عدة مرات قائلاً: سبحان ربي العظيم».

وإذا قال ذلك بنباهة من يدرك خطورة أهل التكفير عندنا فإنه يقول بخفة دم قلم وروح تدرك بواطن وظواهر الوعي الثقافي في أنظمة اجتماعية ملغمة (بفتيا) أهل الظلام المتربصين بتكفير أهل النور والتنوير!!

ويقول (السيد حبيب علي الجعفري) الذي زار القدس الشريف أخيراً يرتب مراحل سير (المذنب) ويقول: مراحل سير المذنب إنه إذا تاب أطلق عليه مسمى (التواب).

وبعده يرتقي إلى مرتبة الأوّاب ثم الأواه ثم إلى المنيب ثم إلى الخاشع ثم إلى التقي ثم إلى الولي ثم إلى الصديق، ولقد فهمت كل تلك المراتب فهماً لا بأس به غير أني عندما وصلت إلى كلمة (الأوّاه) (زرقنت) وغلب حماري قليلاً ولا أدري هل هي تعني الصياح أو النوح؟! لكن وبعد فاصل من التمعن والتفكر وردت على ذهني إحدى

الآيات من سورة هود في القرآن الكريم وجاء فيها: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ (هود: 75) وأظن أنها جاءت من ذلك والله أعلم.. هل تصدقون أنني كنت أتمنى لو أن أهلي أطلقوا عليّ اسم (عبدالتواب) وذلك لكثرة ما كنت وما زلت أتوب إلى الله تعالى؛ فكل أسبوع على الأقل عندما أقترف صغيرة من صغائر الذنوب أرفع أكفّ الضراعة طلباً للمغفرة والتوبة..

المعتزلة وأسماء الله الحسنى

«ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها».

الواحد الفرد الصمد كثرت أسماؤه وتعددت وتنوعت مخلوقاته فالحياة تعدد وتنوع وهو يديرها بتعدد أسمائه...

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المسقط الجامع الغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور... تفقد الأسماء اسماً اسماً وقلبها وتأول جلالها في

تناقض شمولية معانيها وسأل نفسه من أسماه بأسمائه اهو سمّى ذاته..
أأسماؤه في ذاته أم ذاته في أسمائه؟!

لقد عظمت ذاته في أسماؤه وعظمت أسماؤه في ذاته فهو العظيم الواحد الصمد القهار!!

وعاد يسأل نفسه هذا المعتزلي المحتار في أسئلة عقله... ما أصعب وأعقد أسئلة العقل في مخاض تحولها إلى أفكار!! الأسماء تعرف قبل ظهور الأشياء أم بعد ظهورها؟!

كل الأسماء تعرف وتسمى بعد الخلق بعد الولادة.. أأسماؤه توالدت واستوت فيه أم استوى فيها اسماً.. اسماً...

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ (طه: 5)

كل الأسماء تسمى وتعرف.. قبل الاستواء أم بعد الاستواء قبل الولادة أم بعد الولادة. هناك أسماء منذورة قبل ولادتها وهو الاستثناء أما في العام فإن الأسماء تعرف بعد ظهورها!!

كل الأسماء تحدد اللغة اسمها بعد ظهورها!!

فبأي لغة تحددت أسماء الله؟! سأل نفسه وأجابها... أسماء الله الحسنى ليست كسائر الأسماء، إنها تخلقت في صفات الله واستوت معه يوم استوى على العرش ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ وأضاف بأسمائه جلّ وعلا!!

الحياة في تعدد وتنوع أشيائها وأسمائها وفي جدل أشيائها تنمو الحياة وتتنوع وتتعدد في أسمائها عانق فكره خياله وتجاوز خياله عقله

وفكره وصعد إلى الله في خياله على درجات ابتهالاً بأسمائه عتبة.. عتبة مباركة متهجداً بأسمائه حتى غاب في تهجد ابتهالاته بأسماء الله وهو على سجادة صلاته دون أن يقبض شيئاً في سناء خيال أرهقته متناقضات العقل في الصعود إلى الله عبر تحسس جلال أسمائه في صلاة بين الشك واليقين!! فالشك الطريق الأنجع للوصول إلى اليقين كما تقول المعتزلة!!

ما أعذب المعتزلة شعراً

وقف معتزلي.. يتأمل انسياب مياه نهر الفرات رقراقة تحت عليل هبيب تدفق الرياح عليها وتلمس تفاصيل لذّة غنج مُويجاتها كأنها تثير غرائز شهواتها وتقيمها من نعاس توجدها في الخلق والطبيعة...

وردد متأولاً: وخلقنا من الماء كل شيء حيٍّ.. واستحبّ أن يضيف وخلقنا من الماء والطين كل شيء حيٍّ... هو استشهد عقله وحوّر... لا: لم يحور بل أضاف والإضافة عند المتكلمين... لم تكن تحويراً وإنما تعزيزاً لمنطق وعي العقل... ووعي باطن العقل!!

فليس كل ما يطلقه وعي العقل عقلاً... لأنه قد يُطلق لا وعياً... إذن، العقل رهن وعي ولا وعي إدراكاته فقد يثير العقل ـ مثلاً ـ انتصاب الحب في وعي ولاوعي عاشقين متيمين في برزخ لذة عناق الحب تحت فيء غابة من تفاح الحياة!!

العقل محرك فعل الحب لدى العاشقين المتيمين في وهج عناق الحياة وهو وصل تدفق عواطف عبر مسيرتهم وصلاً بتخافق القلوب في برزخ المحبين ...

المحب يخفق قلبه حباً وليس عقله... إلا أن العقل يقذف دفء

الحب عبر الشرايين المؤدية إلى القلب فتذوب القلوب عاطفة وتتدفق وجداً في بوح قلب إنسان إلى قلب إنسان...

هكذا تذوب عند شعراء المعتزلة القلوب في الأكف والأكف في القلوب على إيقاع العقول سُكراً لذة للشاربين والناظرين!!

وتجعل أنامل الحبيب عقر سكر... فقد نزع هذا الشاعر المعتزلي رقة لا تجاريها رقة شاعر جعل للخاطر في القلب جرحاً فتسامت رقة الدهشة الشعرية في أن يجرح الجسم فكر... فإذا التأم جرح السيف فإن جرح الفكر يطول التئاماً!!

وقد أذكر قديماً قول شاعر:

جـراحـات السنـان لهتـا التئـامٌ   ولا يلتـام مـا جـرح اللسـانُ

ومن حسن التلطف والتعطف واللين الندي بشوق اللذة: يصبح الحبيب في حالة سُكر كأن شفتيهما من عناق القبل بينهما لوّنها الشعر المعتزلي وبللها بعقر السكر في وهم تجلي عاشقين!!

تـوهـمـه طـرفـي فـآلـم خـده   فصار مكان الوهم في نظري اثر
وصـافـحـه قلبي فـآلـم كفه   فمن صفح قلبي في أنامله جمر
ومـرّ بقلبي خـاطـراً فجرحته   ولم أر جسماً قط يجرحه الفكر
يمر فمن لين وحسن تعطف   يقال به سُكرٌ وليس به سكر

قوافٍ بينات من شعر معتزلي تتدافع قوافي شعره عذوبة ورقة كأنها مأخوذة بوقع لذة العقر!!

رقة لغة التماهي شعراً وقولاً وقافية وأدباً وفكراً في خيال واقع

نص النقل ونص العقل يتألق الشعر روح عقل لدى المعتزلي حتى كأنها خيال يأخذ عوض المعقول في المنقول من تجليات روح العقل وعقل الروح!!

وليس كل ما لدى المعتزلة معقولاً فإن لديهم من المنقول ما يأخذ إلى القلب... أقول القلب وليس إلى العقل... فالقلب ليس عقلاً... والعقل ليس لديه قلب... إنه بلا قلب وإلا لما أصبح عقلاً له خيال...

الخيال روح العقل... فالعقل ينتهي إذا غدا خياله وزاغ... فيا لجنون قلب العقل في الخيال!!

وقد أضع أبا نواس من شعراء المعتزلة فهو يماهي الروح في الجسد والجسد في الروح مماهاة نص النقل في العقل ونص العقل في النقل!!

وكنت قد توهمت أن هذين البيتين الآتيين من الشعر هما لأبي نواس إلا أن هناك من يذكر أنهما لغيره وينسبهما إلى ابن المعتز:

مازلت أستل روح الدن في لطفٍ وأستبيح دمـاً من غير مذبوحِ

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي والـزِّقُّ مُطَّرحٌ جسماً بلا روحِ

وفي التجليات المعتزلية يتشاكل الكلام شعراً والشعر كلاماً ويصبح الكلام وعي تأمل فلسفة من الجنون في حالات تجلّي العقل عقلاً مستحيلاً!!

فمن المعتزلة من كان شاعراً أول مرة وأصبح متكلماً ومنهم من كان أول مرة متكلماً وأصبح شاعراً كأن كلامهم أكان شعراً أم كلاماً ما

ينحو إلى خيال الفلسفة وفلسفة الخيال ارتباطاً بالعقل وليس بالنقل!!

وقد نجد ماهو نواسي معتزلي وما هو معتزلي نواسي في الشعر!!

وقد عرف أبو نواس شاعراً فاضلاً متهتكاً فذاً في رفعته الشعرية ولا يمكن لأحد أن يتذوق الشعر أو يُصبح شاعراً إذا لم ينهل من صفاء ورقة وعذوبة رحيق الشعر لدى أبي نواس!!

ولا غرو فقد أبدعت المعتزلة في فقه الكلام والأدب والفكر والمنطق والشعر وأثرت الحياة الثقافية الإسلامية وتماهت عقلاً وفكراً حتى بلغت أوج مدارات فلسفية في المنطق والكلام والخيال والشعر والأدب فأنطقت العقل في الإسلام المغلول ردحاً من الزمن بأغلال النقل وفي تلمس الحقيقة في دياجير وهم النقل...

تماهت المعتزلة رقة الكلام في رقة الأدب والشعر حتى استوى الشعر طرف عاشق في طرف همس نديّ رقيق عذب من العزل.. كأن الشعر لدى المعتزلة تطارف وله نظرات عيون تشع عشقاً في تطارف شعر:

وشـــــادن يـنـطـق بـالـطـرف يقصـر عنـه منتهـى الـوصف.

المرأة عند المعتزلة

المرأة: غرز غريزة رقة تكونها الإنساني في الحياة.. وهي الأعمق إنسانياً بغرائز خصوصيتها التكوينية والأكثر حميمية في عالمها فهي تُكوِّن وتتكون في كنف زمن محدود من الخلق والتخلق نمواً وكفاحاً في الحياة طراً، في أمومة حاكمية غرائزها الإنسانية الحميدة... الأرق والأسمى والألطف والأعـذب والأكثر تفانياً ونكران ذات تجاه الآخر... ومن أجل الآخر... وهي الأعشق والأحب والأكثر إخلاصاً للآخر...

إنها تكتنف الطفولة في أحشائها بحميمية غريزية أمومية طاهرة مُطهرة فتراها تتخلق في سلوكها وفي جهاديتها في الحياة بذات الحميمية الغريزية المجبولة بطهرانيتها وغفرانية أمومتها الإنسانية خلال التناجب والإنجاب والعمل بخصائص طبعها وتطبعها في الحياة!!

والرجل لا يتمتع برقة وطهارة الغريزة الإنسانية لدى المرأة لأنه منْجَبٌ فقط وليس مُنجباً.. أما المرأة فإنها مُنْجِبة ومُنْجَبة في كنف تكوينيتها الأنثوية..

الرجل تكون في بطن المرأة... والمرأة لم تتكون في بطن الرجل

وإنما تكونت في بطن المرأة... المرأة من امرأة إلى امرأة في التكوين والظهور إلى الحياة أما الرجل فهو من امرأة في التكوين والظهور للحياة..

المرأة متكون ومكون للمرأة والدة ومولودة امرأة.. استوت في بطن امرأة وسوّت امرأة في بطنها فأعطت وأخذت متبادلة رقة المشاعر الإنسانية في حميمية الخلق والتخلق والاستواء في عظمة الخالق... أعظم خلق الله امرأة وليس رجلاً.. المرأة مُنْجِبة ومُنْجَبة من بطن امرأة.. والدة ومولودة... أما الرجل فهو مولود وليس بوالد بالرغم من أنه يدعونه (الوالد) فهو ليس بوالد وإنما مولود. أما المرأة فهي الوالدة والمولودة وضمن هذا التوجه في التأويل المعتزلي... ترى المعتزلة أن المرأة أعدل من الرجل وأنه لا عدل في التناسب بين رجل وامرأة!!

وترى المعتزلة كما يقول الجاحظ: «إن النساء أعدل من الرجال في شهاداتهم... ولا ترى أن شهادة الرجل تعادل شهادة امرأتين». وهم يقفون عند ظلم المرأة ولا يرون عدلاً في التساوي بل الظلم بعينه في أن يعادل حق الرجل الواحد حق امرأتين!!

الحرية في القناعة في اختيار كل شيء من عدمه بما في ذلك الأديان وفي التاريخ تتناهض ضد قيد النقل. «في عام 1924 تأسس الاتحاد النسائي المصري بمبادرة ورئاسة السيدة المتألقة في عالم نضال المرأة المصرية والعربية ضد الحجاب ومن أجل الحرية المجاهدة (هدى الشعراوي). وقد شجعت النساء المصريات والعربيات على خلع

الحجاب وقد مهد هذا الطريق لعقد مؤتمر الاتحاد النسائي العربي عام 1944 في القاهرة وحضره عدد من النساء العربيات وظهر العديد من الشخصيات النسائية اللاتي دافعن عن حق المرأة في الحياة بدون حجاب وأخذن يروجن لتحرير المرأة من كل قيودها وعلى رأسها الحجاب ومنهن سهير القلماوي ودريّة شفيق وأمينة سعيد».

المرأة كونها جمالية حقيقة صارخة يكممونها بسواد الحجاب لكي يخفوا حقيقتها الإنسانية فالمرأة عقل الحقيقة وعريها... والحقيقة لا قيمة لها إذا لم يُعرِّها العقل... إذن فالمرأة العقل حين تعريه الحقيقه.. وكان النقل الحجاب القبيح لعقل المرأة وعلى طريق تحرير العقل من النقل يأخذ العقل طريقه إلى تحرير المرأة من الحجاب!! أهكذا تأملت المعتزلة(؟؟).

وقد لعب قاسم أمين دوراً في تحرير المرأة في كتابه عام 1899 بعنوان «تحرير المرأة». وقد كان للإمام محمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفي مواقف إيجابية مشرّفة بجانب المرأة وبجانب رأي قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة». «إن حجاب المرأة السائد ليس من الإسلام» وإن الدعوة إلى إزالته ليست خروجاً عن الإسلام.. وقد أفتى العالم الإسلامي البارز محمد طنطاوي شيخ الأزهر في أكتوبر عام 2009 بأن النقاب ليس فريضة إسلامية وقد طلب من إحدى الطالبات أن تخلع نقابها خلال زيارته لإحدى المدارس وقام بإرشادها وتوجيهها بأن النقاب عادة وليس عبادة. وفي الواقع فإنها عادة سيئة تسيء إلى

الإسلام وتظهره بمظهر متخلف يعود إلى انحطاط الديانة العبرية في التاريخ، ويقول عطاء الله مهاجراني في جريدة (الشرق الأوسط): «الحجاب أو الشادور في إيران منتشر بين السيدات المتدينات ولكن ارتـداءه ليس فرضاً طبقاً لتعاليم الدين الإسلامي ولا من عادات المجتمع، إنه يعود إلى الأزمنة القديمة في إيران. في تلك الأزمنة لم يكن للسيدات أي دور في المجتمع لذا لا نجد في «برسبوليس» (تخت جشميد) أي صورة لامرأة» ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ (البقرة: 256).

وبحسب تفسير الزمخرشي في كتابه «الكشاف» لا إكراه في الدين أي لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر ولكن على التمكين والاختيار.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس: 99).. أي لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل وبنى الأمر على الاختيار.. ويقول ابن عربي: «لا إكراه في الدين» لأن الدين في الحقيقة هو الهدى المستفاد من النور القلبي اللازم للفطرة الإنسانية المستلزمة للإيمان اليقيني وكما نعلم هذه الآية مكية لا مدنية.. وكانت الروح المعتزلية تحوم تأويلاً فيما ذكرنا آنفاً.. ومن واقع رفض النقل في الجبر وعي الحرية.. فالحرية ترفض الجبر في العقيدة وفي كل شيء... الجبرية الستار المضروب

حول العقل وهو قيدها الأزلي من واقع أن النقل جبر العقل ومحنته!!

ولم تحدد المعتزلة موقفاً معادياً تجاه المرأة.. إلا أنها تراها ضمن حريتها في حاكمية العقل الحر... وليست في حاكمية النقل المقيد للحرية... وما العقل إلا في حاكمية عدل المرأة خلاف النقل الذي يكرس بغضاء المرأة.. لا أحد مجبراً في عقيدته رجلاً كان أم امرأة.. فالكل سواسية أمام قيادة العقل... فالعقل في عالم الغيث والشهادة واقع عقيدة ورأي وفقه تأويل للرجل والمرأة على السواء.. فحاكمية عقل الرجل قياساً على حاكمية عقل المرأة (العقل لا يؤنث ولا يذكر) إنه مجاز وتأويل فوق التأنيث والتذكير ومجاز التأويل إنه في حاكمية آدمية حرية اختياره وليس في «آدمية» جبريته.. أكان آدم مجبراً على الخروج من الجنة؟! أكانت المرأة مجبرة على تناول التفاحة؟! أتناول التفاح لعنة دهر؟!

من أكل التفاحة أولاً آدم أم حواء.. من أغرى الآخر بأكلها...

أكانت الإرادة الآدمية في تلقائية وشاية العقل هي التي تحقق إرادة الذكر والأنثى على السواء أم ماذا؟!

العقيدة الحرة في العقل الحر والعقيدة المستعبدة في النقل الحر المستعبد في نقل عبودية قيوده لا في حرية عقله!!

كلما تنامى رأي فكر في رأي عقل لدى أي إنسان في منظومة العقيدة الإسلامية تنامت ذاكرة المعتزلة كأول فرقة اتخذت العقل شأناً في الحياة.. ورفضت النقل!!

في صحيفة «الأهرام» المصرية 29 يونيو/ حزيران 2012 يُنقل عن الرئيس المصري مرسي وهو يتوثب عتبة الصعود إلى رئاسة الجمهورية المصرية قوله: «إن المرأة غير مجبرة أصلاً على العقيدة فكيف يتم إجبارها على ارتداء زي معين» .

هم يأخذون شيئاً من المعتزلة - أعني الإخوان المسلمين - ويلعنونها: ففي السياسة الكفر حلال... والحلال كفر... الحلال يغيب الكفر والكفر يغيب الحلال...

إن ارتدت المرأة الحجاب... أو ارتدت البكيني فحريتها في إرادتها في ارتداء الزي الذي تراه... وهي حرة في عقيدتها وفي زيها وفي جسدها ولا سلطة لأحد عليه إلا عقلها وفق حقيقة ما آلت إليه التأويلات المعتزلية وما يتماثل لنا حتى يومنا هذا أثر نصوص النقل في الاعتداء على كرامة المرأة وقمع حريتها حتى في اختيار لباسها ناهيك عن عقيدتها... وفي تاريخنا الحديث نتلمس أثر المعتزلة في الأنشطة الفكرية للعقل العربي والإسلامي على السواء في مناهضة العقل للنقل في حرية المرأة وما يتمثل في خزي النقل في جلد المرأة ومعاقبتها على إظهار شعورها وكشف غطاء وجهها وارتدائها «بناطيل» ما يأتي على تفاصيل جسدها!! دون أن يدركوا أن تفاصيل الحقيقة مجاز في تفاصيل جسد المرأة!!

الجاحظ والشيطان

أَعَقل الجاحظ تكون معتزلياً... أم المعتزلة كونت الجاحظ عقلاً معتزلياً متميزاً... من كوّن من؟!

لا المعتزلة كونت الجاحظ.. ولا الجاحظ تكون معتزلياً!! العقل كون المعتزلة والجاحظ على السواء.. وكان العقل منطلق مواهب تفكيرية لكل أطياف وطبقات المعتزلة وغير المعتزلة في الفكر والفلسفة... إمعان العقل في الفكر وإمعان الفكر في العقل في محتوييهما الجدلي شكّل محور تنامي العقل في العقل فاستوى الفكر المعتزلي وتناضج في التاريخ وشكل عواصفه الفكرية في الإسلام. إن تمعين العقل في تأمل نصوص الحياة في ترابطها وتفككها وتصادمها وتناقضها وتوالدها وتكاثرها وتناثرها واضمحلالها وفنائها يتشكل شيئاً من هواجس المعتزلة في الإنسان المسلم خلال تفكيره العقلي، من واقع أن المعتزلة لهم الأسبقية في الإسلام برفض النقل والأخذ بالعقل... رفض صحف المنقول والأخذ بصحف المعقول.. أليست صحف النقول منقولة وصحف العقول منقولة أيضاً؟!

صحف العقول وصحف النقول في إخضاعها للعقل تصبح عقلاً لا نقلاً!!

هكذا كان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ يدور فكراً في فلك النقل والعقل كما تدور أفكار عربية إسلامية وغير إسلامية حتى يومنا هذا!!

وكانت الدهشة لا تفارقني وأنا أتصفح هذا المعتزلي الفذ أبا عثمان الحاحظ المثقل قبحاً ودمامة.. ومنظراً وجسداً ولوناً وشكلاً.. وهو الشفاف البهي النقي العذب الجميل الفكه الروح والأريحية الغزير والنابهة في المعارف. وأحسب أن دواخله الإنسانية تضج بالمسرة والبهجة في الحياة من أجل حياة أسرّ وأبهج وهو يستشرفها روحاً ويجسدها عقلاً معرفياً لحياة أسعد وأجمل!!

وأجدني أتساءل فيه: هل تساءل الجاحظ النافر العينين المحفور الخدين المجدور الوجه الفاحم اللون... الجهم المتهدل اللغاديد!!

لـــو يمسخ الخنزيـر مسخـاً ثانيـاً   مـا كـان إلا دون قبـح الجـاحظِ

لماذا خصّه الله بالقبح والدمامة؟! وأين عظمة الخلق في المظهر أم الجوهر؟! فكيف كان المظهر نقيض الجوهر.. حقاً إن لله في خلقه شؤوناً!!

أفي الخلق عقاب... أيعاقب المرء قبل أن يخلق؟!

الشكل يأخذ مشيئة شكله... فالأشكال في عمومها منقولة أما خصوصية جوهرها فإنها معقوله!!

وإذا تشابهت المخلوقات بأجناسها عموماً في نقولها... فإن العقول محكومة بعقلانية التباين.. فالناس تتشابه في أشكالها.. إلا أنها

لا تتشابه في عقولها.. وكانت جمالية روح أبي عثمان الجاحظ: مياه عذبة صافية تتدفق وتتلألأ رقراقة فكهة سعيدة متدثرة بجمالية الحياة في نفس إنسان يُجسد خيال العقل على طريق الواقع الملموس في الحياة!!

فقد انحدر أبو عثمان الجاحظ في التاريخ من مخاض ثورة الزنج في البصرة وكانت ثورة من أجل الحرية وضد العبودية انطلقت يوم وفاته (255هـ).. ويوم أن فارق الحياة كان عمره 96 عاماً وهو لم يتزوج وربما قُبح شكله حال دون ذلك.. وكان مثلاً في القبح وحجة في العلم والأدب والتأليف وكان معدماً يصطاد السمك من نهر الفرات ويشويه ويلفه بالخبز ويبيعه «سندويشات» في تلك الأزمنة الغابرة.. وهو نادرة في حكم نوادره ومعارفه وآدابه يكرس جلها أدباً ومعارف وحكماً ضمن أفكار معتزلية متسائلة في نفسه وفي عقله يُحرك بها عقول المتلقين..

ذات يوم كان واقفاً أمام باب داره حين اقتربت منه كاعب من كواعب البصرة تتدافع إليه كقطاة عطشى إلى غدير... وضوع عطرها ينفذ إلى ثقبي منخاره المفرطح فوق شفتين منتفختين متهدلتين... تلعثمت جوارحه فيها وتضارب النقل عنده في العقل... فتذكر الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ (الإنسان: 30) فقالت له في دلع وغنج: «إن لدي فيك حاجة» وطلبت منه المشي في إثرها وهو يتشمم عطر أثرها.. فأتت به إلى أحد

الصاغة... وأشارت بإصبعها إلى الجاحظ قائلة: مثل هذا... وأقفلت عنه دابرة.. وكان أن طلبت من الصائغ أن ينقش صورة الشيطان على فص خاتمها.. وإذ بالصائغ يعتذر قائلاً: ما رأيت شيطاناً في حياتي فكيف لي أن أنقش صورته على خاتمك!!

أكان الجاحظ يشاكل في دمامته وقبح منظره الشيطان... وهل الشياطين يمكن رؤيتها أم أنها انتحال لخيال النقل... وقف الجاحظ أمام المرآة يتفقد قبح حاله... وقال يا لقبح تقويمي وهو يضمر الآية الكريمة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ (التين: 4).. يا لتمرد شيطان الجاحظ!!!

وكانت طفولتنا مضغوطة بأرواح الشياطين والحكام... وكانت قلوبنا تخفق خشية الشياطين والحكام... ونحن نتقرفص اللحاف على الفراش وكانت لا تغط عيوننا في النوم إلا وحضور الشياطين لها وقع في أحلامنا... أكانت الشياطين تسكن الحكام أم الحكام يسكنون الشياطين؟!

الشِّيئة عند المعتزلة

الشِّيئة عند المعتزلة هي إرادة الإنسان في ما يشاء أن يعمله من عمل مادي أو فكري.. وخياره الذاتي فيما يختاره لنفسه أو لغيره فيما يراه من عمل فكري أو مادي!!

وهم يتشيأون مشيئة الله في مشيئة الإنسان.. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (الإنسان: 30) فالمشيئة هي رغبة ذاتية للإنسان تتحدد في إرادته وحده دون غيره.. وتدخل على مشيئة الآخر برغبته أو بدون رغبته.. وهي مشيئة رغبة ذات الآخر في ذات الآخر... فالشِّيئة في مشيئة الآخر أو بمشيئة الآخر مشاعة بتراضي الأطراف وبدون تراضي الأطراف...

المشيئة مطلق الذات في الذات وفي ذات الآخر... المشيئة قد تقبلها مشيئة الآخر وقد ترفضها.. وقد تشاء مشيئة على مشيئة أخرى برغبة أو بدون رغبة...

المشيئة مخيرة أي هي تختار مشيئتها وهي ليست مسيرة لا أحد يستطيع تسيير المشيئة برغبة أو بدون رغبة أو (برغبة) طبيعة فطرية مشيئتها!!

فُطر الإنسان في مشيئته حراً وفطرت المشيئة حرة في الإنسان ولم تفطر خارجه ولم يفطر خارجها...

وقد وقفت المعتزلة تتأمل مشيئة الله في شيئة الإنسان... شيئة العقل في شيئة النقل.. أم شيئة النقل في شيئة العقل.. أي مشيئة عقل الله في عقل الإنسان وفق الآية: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يكون الإنسان مسيراً.. أم مخيراً في مشيئة ذاته أم في مشيئة ذات الله.. يعمل باختياره وبإرادته وبما يمليه عليه عقله وضميره أم يعمل باختيار ربه وما يمليه عليه عقل وضمير ربه؟!

إن رفض المعتزلة للجبرية في أن يكون الإنسان مجبراً بعمله وبمشيئة الله فيما يعمل وفيما يشاء وهو ضمن مشيئة الله في عمله خيراً أم شراً... فقد نأت المعتزلة بمشيئة الله شراً أو سوءاً وكرّست مشيئته في عمل ما ينفع الناس وليس فيما يضر الناس.. إن ما ينفع الناس في الله وإن ما يضر الناس في الناس. وربطت أعمال الله بأسمائه الحسنى: في العدل والكرم والمجد والطهارة إلى آخره من أسمائه الـ 99 التي سمّى بها نفسه دون غيره والله في عمل بر الخير وخارج عمل الشر... ولا يمكن خلط مشيئة إرادة الخير بإرادة الشر.. إن إرادة الشر حصراً في نزوع إرادتها في ذات شرها... كما أن نزوع إرادة الخير حصراً في ذات خيرها؛ وعبثاً مزج ذات الشر وذات الخير في إرادة متزامنة واحدة... كمن يتوهم أنه يمسك بالنار والماء في آن واحد، فيتشابه عليه أمر الماء في النار وأمر النار في الماء... أو كمن يمسك بالعقل نقلاً وبالنقل عقلاً فيتشابه عليه أمر النقل في العقل وأمر العقل في النقل كتشابه الخير في الشر وتشابه الشر في الخير في إرادة الخالق أو المخلوق على السواء!!

في البدء كان النقل وكان العقل... وفي البدء كان العقل وكان النقل... أي أن هناك ترسبات في العقل من النقل.. وترسبات من النقل في العقل.. وهو ما يُحدث الازدواجية التي نجدها نقلاً وعقلاً في الإنسان... فالإنسان مزدوج العقل والفكر والروح.. والمعتزلة تتأول الإنسان تأويل حقيقة مزدوجة أمام الملايين من حقائق الحياة.. وهو أي الإنسان عصف شك ويقين في البحث عن الحقيقة كلما أمسك بحقيقة تسربت ملايين الحقائق من بين أصابع يديه وقد أعيت الحقيقة المعتزلة في الإمساك بحقيقة الكون.. كون الكون حقائق لا تعد ولا تحصى في أزل الكون!!



في اجتهاد النقل واجتهاد العقل

للاجتهاد قلق تكونه وقلق تخلقه وقلق ظهوره فهو قلق في ذاته وفي ظهوره وقبل ظهوره... والاجتهاد اجتهادان: اجتهاد ضمن صيغة النقل واجتهاد ضمن صيغة العقل...

الأول اجتهاد من النقل وفي ذات النقل ولا يخرج عن النقل.. فالخروج عن النقل يعني تجاوز حدود الله.. أحدود الله حصراً في نصوص النقل.. أم أن حدوده في تجاوز ما هو منقول وما هو معقول؟! فلحدوده قدسية... ولا خروج على قدسيته في مدِّ اجتهاد المعقول والمنقول!! والثاني اجتهاد العقل في مطلق تجلياته خارج النص وفي النص عبر خلخلة النص وتجاوز بياناته النقلية ونقضه بنص العقل... وفي تجاوز الحدود كل الحدود المنقولة والمعقولة الثابتة والمتحركة وفي حركة ترافد وتناقض وتصادم وتآلف وتآخي وتكاثف العقول في الدنيا على طريق البحث عن الحقيقة في تلافيف النصوص المنقولة والمعقولة.

اجتهاد العقل يغرف من جدل الحياة في الحياة.. وفي جديد الحياة.. واجتهاد النقل يغرف من موت الحياة ونبش الأجداث في ركام ميثولوجيا الموت في التاريخ!!

اجتهاد النقل يقيد العقل في حدود سيرورة الكم وضمن تراكم الكم وقطعه في حدود كمه دون إعطائه حق الخروج إلى نوع التوثب على ذات نص النقل.. أي إخفاء الحقيقة ضمن الكم وعدم كشفها في تجليات نوعها وتعرية باطل نصوص النقول وإظهارها على حقيقة باطلها!! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ (المائدة: 101).

التفكير ضمن سيرورة الكم... وما تجاوزها كيفاً ونوعاً فهو مرفوض وخروج على حدود الدين.. كل الأديان تتحدد بسيرورة الكم وما تجاوزها نوعاً فهو مرفوض ويقود إلى الكفر... كلما أمعنت فكراً في الخالق وما خلق وفي عجيب ملكة إرادة كن فيكون... كلما اقتربت من الشك واحتمال الانكفاء على الوجه في الكفر والعياذ بالله... اجتهاد العقل موعده الكفر واجتهاد النقل موعده الإيمان.

بدعة اختلقتها سلطات الحاكم لوضع المحكوم ضمن اجتهاد النقل في النص وعدم الخروج عليها؛ فالخروج على اجتهاد النقل باجتهاد العقل خروج على حدود نصوص السلطان والخروج على حدود نصوص السلطان يعني خروجاً على حدود الله.. حتى المعتزلة عندما حكمت أقفلت حدود اجتهاد العقل بحدود نصوص المجتهدين من المعتزلة بل شددت اضطهاد المعترضين على تأويلات عقول أئمتها وفلاسفتها. وقد خضع البعض جراء قمع واضطهاد وتنكيل طغيان المعتزلة.. وتشديد قبضة سلطانها ضد معارضيها.

شريعة العقل لا شريعة النقل

العقل بطبيعته معتزل عن العقل الآخر.. فالعقول كلها متباينة الرؤى في نظرتها الكونية وفي كينونة خصائص تنوع وتعدد منتج أفكارها وقد تشكلت بطبيعة خلقها وتخلقها في الاعتزال بعضها عن بعض في طريقة تفكيرها وتعدد وتنوع نظراتها تجاه كائنات الحياة!!

فالله أعطى الإنسان العقل ولم يُعطه الإيمان؛ وإنما أعطاه حق الاختيار وحده في مشيئة إيمانه وعدم إيمانه وفقاً لتشكل العقل مُضغياً بالحرية في مشيئة الإيمان ومشيئة الكفر على السواء... ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ (الكهف: 29).

ويأتي السؤال في عفوية تلقائية الأولوية لمن؟! للعقل أم للإيمان!! الأولوية لمن؟! للعقل أم الدين؟! العقل أنتج الإيمان والدين وليس العكس.. والعقل والإيمان والدين ما وجدا إلا لخير الإنسان وحرية الإنسان وعدل الإنسان.. وكان من حق الدولة أن تعترض بقوة القانون على أي كائن يقوم بتوظيف العقل والإيمان والدين ضد خير الإنسان وعدل الإنسان وحرية الإنسان!!

فالإنسان بعقله وإيمانه ودينه مُخَيّر وليس مسيراً في عقله وإيمانه

ودينه من أي كائن على وجه الأرض.. وإنه من الظلم قمع عقل بعقل وإيمان بإيمان وعقيدة بعقيدة ودين بدين...

إن دولاً كثيرة وقّعت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في 15 ديسمبر/ كانون الأول 1948 الذي تنص مادته الـ (18): «إن لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانة أو عقيدة وحرية الإعراب عنها بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة». كما وقعت هذه الدول العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الصادر في 16 ديسمبر/ كانون الأول 1966 الذي تنص مادته الثانية على أنه «لا يجوز تعريض أحد لإكراهٍ من شأنه أن يخل بحريته في اعتناق أي دين أو معتقد يختاره وأمام الملأ أو على حدة». وفي المادة العشرين رقم (2) تنص على أنه «يحظر بالقانون أيّ دعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية بما يشكل تحريضاً على التمييز أو العداوة أو العنف».

وفي العصر الذي نعيشه ونحيا فيه تدخل الشريعة الدولية على الشريعة الإسلامية كما دخل عقل المعتزلة منذ قرون ولأول مرة في التاريخ الإسلامي لتكريس العقل والموضوعية العلمية والفلسفية ضد الميثولوجيا في الإسلام...

وذلك بإعطاء عقل الإنسان حق التأويل في الدين والتراث والثقافة وحق حرية إبداء الرأي فيما يراه العقل تجاه سالف التاريخ

والجغرافيا وصحة المعلومات التراثية وفق الرؤى المعاصرة في الحداثة والتحديث المرتبطة بحرية العقل تجاه مسؤولية الشريعة الدولية في حق عقل الإنسان اتخاذ قراره في حرية عقله وفق مسؤولية الإنسانية والوطنية وليس خارجها!!

وفي التاريخ الإسلامي شقّت شريعة العقل المعتزلية جمود وتكلس شريعة النصوص وحررتها من رواسب تكلساتها الميتافيزيقية وانتشلتها من واقع سكونها في الظلام إلى واقع حراك العقل وأنواره في البحث والكشف عن الحقيقة المغيبة في سراديب مجاهل التاريخ والجغرافيا ضمن نصوص النقول!! وإن «من اعتزل الباطل وقع في الحق».

وكأن حراك جدل شرائع الأنوار على صعيد العالم يأتي على مجمل سكون الشرائع المادية والثقافية ويحركها من سكون ظلامها ويتأجج بها نوراً على نور في عين الشمس!!

وقد اجتهد كثيرون من المؤرخين والباحثين في إظهار هذا الاسم التاريخي للمعتزلة.. إلا أن حقيقة الاسم كما نراه فيما يضمره الاسم نفسه على المسمى، كون المعتزلة انعزلت بعقلها تأويلاً كأول فرقة في تاريخ الإسلام. وقد أطاحت عمارة ميثولوجيا النقل وأشادت على أنقاضها عمارة العقل في علم الكلام... وبما أن العقل في طبيعة بنائه معتزل عن العقل الآخر بأفكاره فقد وقع اسم الاعتزال على مسمى المعتزلة!!

التقية عند المعتزلة

هي وعي العقل الباطني في الدفاع عن العقل والمعتقد.. وفي اتقاء الباطل ذوداً عن الحق... وفي دفع الضرر المحدق بالحقيقة.. وهي سلاح الضعيف أمام القوي في اتقاء شره والكيد في مغالبته، إنها مكر العقل في العقل ضد العقل الآخر!!

وهي ضرورة المسؤولية في صدام العقل في التاريخ والانقلاب على التاريخ...

التقية نفاق العقل الباطني لذات العقل.. وهي لغة الخوف والحذر والكتمان، كتمان وستر الاعتقاد ومظاهرة المخالفين ومجانبة الضرر في الدين والدنيا.. وترك فرائض الدين في حالة الإكراه والتهديد بالإيذاء!!

وهي كما يقول محمد أحمد الخطيب في كتابه (الحركات الباطنية في العالم الإسلامي) «التقية: التي تعلل بها الفقهاء في القول بخلق القرآن».

وكتب اسحاق بن ابراهيم عامل المأمون في العراق كتاباً إلى المأمون يخبره بالأشخاص الذين استجوبهم بخلق القرآن يذكر فيه بأن الذين أجابوا بالموافقة على خلق القرآن لم يجيبوا عن عقيدة وإنما

أجابوا عن تأويل وقد تأولوا أنهم مكرهون وليس على المكره حرج.. ويرى البعض أن لها مبرراً في القرآن: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴿١٠٦﴾﴾ (النحل: 106) وتأول المأمون ذلك قائلاً: إنما عنى الله بهذه الآية من كان يعتقد الكفر ويظهر الإيمان.. فأما من كان يعتقد الشرك ويظهر الإيمان فليست الآية له!!

فالشياطين تسكن أبـداً في تأويل التفاصيل.. والتقية في استدراكاتها أيضاً تنهل من التأويل وتأويل التفاصيل...

وكان الامتحان الديني في خلق القرآن أداة سياسية في يد الخلافة العباسية.. استخدمتها في جميع الولايات لإظهار من يدينون بالطاعة والولاء للخليفة العباسي!!

التقية الوسيلة الملتبسة عبر التاريخ في ستر المعتقد ذاته ضد المعتقد الآخر ذاته..

يقول الخميني في كتابه (كشف الأسرار): «كل من له أدنى حظ من العقل يعي أن التقية من أحكام الله القطعية» كما ورد أن (لا دين من لا تقية له) لكن نذكر أيضاً لذلك دليلاً من القرآن في سورة النحل الآية 106 ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾. نزلت في عمار بن ياسر الذي أكرهه الكفار على الكفر فأظهر الكفر وقال ما طلبوه منه من شفاعات ثم بكى وأتى إلى الرسول فنزلت هذه الآية وأجازت التقية..

وكان الامتحان أمام الخليفة المأمون على أشده في مسألة خلق القرآن وكانت ثلة من فقهاء وعلماء المسلمين.. وكانوا جميعاً قد امتشقوا سلاح التقية واعترفوا زوراً وبهتاناً بخلق القرآن ـ كأن التقية تحمل في طياتها الزور والبهتان ـ إلا أن الإمام أحمد بن حنبل الذي كان شامخاً في إيمانه وشجاعاً في الدفاع عن حياض كلام الله ورغم القمع والتنكيل كان ثابتاً على قرآن ربّه ورسالة نبيه محمد حتى أسلم روحه الطاهرة على صخرة صموده في سجنه!! وهو لم يأخذ بالتقية ـ أكان لا دين له ـ وقد دافع دفاعاً شرساً عن دينه (!!!).. أين صدقية التقية لا صدقية للتقية في العبادة في قول الحق وإظهار الحق على قول الباطل... بل إظهار الباطل على قول الحق في جوهر التقية!!

يتعدد البحث عن الحقيقة بتعدد الباحثين.. وتتعدد رؤية العقول بتعدد العقول... وتعدد الطرق بتعدد السكاكين!!

وكانت السكاكين تغوص في جسد الحلّاج... وكان الحلّاج يصرخ «ما في الجبة إلا الله».

وكانت السكاكين تقطع جسد غيلان الدمشقي إرباً.. إرباً.. وكان يصرخ «إلا العقل لن تقطعه سكاكينكم أيها الجزارون».

الحقيقة تقية... أم التقية حقيقة... أين الحقيقة؟! من لا تقية له لا دين له.. لا عقيدة له لا إيمان له.. لا ضمير له.. لا شأن له في الحياة ومن واقع مغلوط لا شأن للحياة بدون دين!!

التقية تُفقد الحقيقة حقيقتها ولو موقتاً... إلا أن في هذا الموقت تتعفن الحقيقة وتتجزأ إلى هباء!!

التحول منجزه نوع.. والنوع في إيجابه لا في سلبه.. الكم وحده في سلبه.. والتقية في أداء سلبها لا في أداء إيجابها.. هكذا قالت المعتزلة ولو إنها لم تأخذ بهذا في محنتها!!

في معنى علم الكلام ومبناه

شنَّ الأمويون حملة شعواء ضد المعتزلة لارتباطاتهم بصفة (القدرية) ولم يتورعوا عن انتحال حديث «شريف» نسبوه إلى النبي قوله «القدرية مجوس هذه الأمة الذهبي» في سيرة (النبلاء). وهو ما دفع الأمويين إلى نشر هذا الحديث المزيف ضد المعتزلة لقبول الحكم الأموي باعتباره من الله وقَدَر الله وأنه لا عقل ولا حول ولا قوة لدى الناس أمام ما يقدره الله عليهم، وترى مثل هذا الموقف لدى حكام العرب حتى يومنا هذا يذرون توليهم الحكم واقعاً يخضع لإرادة الله.. يقول يوسف زيدان في كتابه (اللاهوت العربي وأصول العنف الديني) في هذا الخصوص: «لا قَدَر والأمر أُنُف». أخرجه مسلم في الصحيح من حديث يحيى بن يعمر البصري وهو ما يفهم منه أن الأمر أو السلطان مفروض بسطوة الحاكم رغم أنف المعارضين ولا شأن لذلك بالقضاء والقدر (الإلهيين). فالمفروض على الناس فَرَضه أناسٌ آخرون لهم في ذلك مصلحة ولا يجوز تعليق ذلك على الأمر الإلهي الذي هو (أُنُف) أي بحسب قول عبدالله بن عمر: يستأنف استئنافاً غير أن يسبق به سابق

قضاء وتقدير وإنما هو على اختيارك فيه ـ ابن منظور: لسان العرب ـ فالأمر لا يتم في العالم بمقتضى (الإرادة) الإلهية أو المشيئة الإلهية الواحدة».

وقد تطرقنا إلى ما يعرف بعلم الكلام لدى المعتزلة وهو ما يعني التبحر في كلام الله المشتق من القرآن وانشغال المهتمين بهذا العلم المتعلق بحقيقة الدفاع عن التوحيد وأصول العقيدة وهو ما يطلق عليه الإمام أبو حنيفة النعمان (علم الفقه الأكبر).. إن علم الكلام في معنى علمه عقل وفي معنى كلامه عقل: في مكاشفة عقل اللاهوت بعقل الناسوت وتجريد عقل اللاهوت من رواسب الميثولوجيا العالقة به عبر التاريخ وفي تجريد عقل الإنسان في عقل الله وتجريد عقل الله في عقل الإنسان بحثاً فيه ومن خلاله، فهو الغوص الكلي عقلاً في كلية الله في الكون والتكوين في بحث اللغة في اللغة وبحث الكلمة في الكلمة فالله (كلمة) ولغته (القرآن) ويأتي علم الكلام إلى الولوج في معنى الكلمة وتصويب لغتها أي لغة القرآن عقلاً في لغة الإنسان في البحث عن (الكلمة) ولغة معانيها في معنى عقل حقيقتها... من حيث إن علم الكلام صناعة لغة يقتدر بها الإنسان في نصرة الآراء والأفعال المحمودة كما يقول الفارابي.. ويأتي علم الكلام في إيقاعه تأويلاً كون القرآن كما يقول علي بن أبي طالب: (حمال أوجه) أي يتضمن التأويل عقلاً في أوجه معانيه وفي «اثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها» كما يقول القاضي ناصر الدين..

وأرى أنه في المعنى معنى وفي الكلمة كلمة وفي اللغة لغة.. فالمعنى يحمل معنى والكلمة تحمل معنى كلمتها واللغة تحمل لغة زُلال معانيها... أيمكن الامساك بحقيقة تلك الأوجه المتعددة في وجوه الله، فالله حمال أوجه في قرآنه وهو ما أشار إليه علي بن أبي طالب فيما يحمله (القرآن) كونه حمال أوجه: معانٍ متعددة لوجه كلمة واحدة في اللغة ناهيك عن تعدد المعاني التي تضج بها مفردة اللغة فكيف بعشرات الآلاف من المفردات في معاني لغتها؟ ويدخل ابن خلدون (عبدالرحمن) على الخط قائلاً: «إنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المنحرفين في الاعتقاد». وكأن ابن خلدون يناجي موقعاً وفكراً يحوم في فكر المعتزلة وموقفها، كون الإيمان دليله العقل وكون العقل دليله التأويل في ما يحمله التأويل من أوجه تأويل، كأن التأويل نقض تناقض التاريخ على مر العصور!! ويرى الإمام محمد عبده وأحسبه يحوم أيضاً - ما أكثر الحائمين - بعقله في المدار المعتزلي: «إن علم الكلام هو علم يُبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه».

وهو ما ينقله لنا يوسف زيدان في كتابه المثير للجدل (اللاهوت العربي وأصول العنف الديني).

ويذكر أن الآباء الأوائل في علم الكلام يتمثلون في معبد

الجهني[1] وغيلان الدمشقي[2] والجهم بن صفوان[3] والجعد بن

---

(1) معبد الجهني: وكان معارضاً فذاً صادقاً صدوقاً ضد المذهب الجبري الذي كان بنو أمية يشيعون ثقافته وتغلغل أهدافه في نفوس الناس لقبول الحكم الأموي باعتباره من الله من واقع مزيف ينحو أن الإنسان مسير وليس مخيراً ولا يملك إرادة مستقلة عن إرادة الله وإنما الخضوع إلى قدرية «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير».

(2) غيلان الدمشقي: وهو حازم صارم شجاع مقتحم مشغول بالفلسفة في تأمل الكون وتأمل الله خارج الكون... يُخرج ما في قلبه قبل أن ينطق به اللسان... يتداركك بضوء أفكاره قبل أن تضيء فيه شيئاً من أفكارك... كأنه ينتزعك من أفكارك بقوة منطقه وسحر كلامه فتصبح فيه فكراً ولغة وفلسفة... وكأنه لا فكر لك في حضوره!! وكان معارضاً فذاً للقضاء والقدر بحرية الاختيار.. فحرية الاختيار لديه شيء مقدس لا تلاعب فيها ولا تردد عنده وقد هاجم ظلم الأمويين وتسلطهم وفسادهم وبغيهم وثراءهم على حساب الشعب.. وقد ولاه الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز شؤون بيت مال المسلمين.. وقد كان يجهر بصوته بين الناس قائلاً: «تقدموا إلى أموال الخونة والظلمة فإنها مشاعة بينكم». وبدأ غيلان الدمشقي المعتزلي الشامخ يوزع خزائن الأمويين على فقراء الناس.. وفي خلافة هشام بن عبدالملك قطعت يدا غيلان ورجلاه بأمر من الخليفة وكانوا ينكلون ويقطعون أجزاءه وهو مستمر في الهجوم على ظلم الأمويين وفحشهم وثرائهم قائلاً: «قاتلهم الله كم من حق أماتوه وكم من ذليل في دين الله أغروه وكم من عزيز في دين الله أذلوه».

(3) الجهم بن صفوان: ويذكر أنه آخر آباء الكلام ومن مؤسسي حركة الاعتزال ويعد حكيم المعتزلة وكان متكلماً بارعاً في علم الكلام وقد عاصر واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد.. وكان محط هجوم شنيع قبيح فاتك من فقهاء المسلمين.. ويورد (الذهبي) قولاً فيه: «إن جهم بن صفوان الكاتب المتكلم =

درهم[1] وهو ما سنتناوله في هذا المجال..

= أسُّ الضلالة ورأس الجهمية كان صاحب ذكاء وجدال وكان ينكر الصفات وينزه الباري (الله) عنها بزعمه ويقول بخلق القرآن ويقول إن الله في الأمكنة كلها».

وقد قتل الجهم بن صفوان.. قتله الأمير (سلم بن أحوز) بأصفهان مع أن الجهم كان لديه عهد أمان من الأمير ابن القاتل (كلهم قتلة قبحهم الله) ولما ذكر له الجهم ذلك رد عليه (سلم بن أحوز) قائلاً: ما كان ينبغي له أن يفعل ولو فعل ما أمنتك ولو ملأت هذه الملاءة كواكب (دنانير) وأبرأك إليّ عيسى ابن مريم ما نجوت. والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك وقتله كما يشير الطبري: في (تاريخ الرسل والملوك). وكانت سكاكين النقل تقطع العقل إرباً إرباً وتسيل دماء الأفكار الحرة على الأرض حيث تنمو الحياة من جديد في التاريخ. وفي التاريخ الذي نعيشه الممارسات ذاتها تتكرر ضد العقل ولكن بأدوات وأساليب خلاف الأدوات والطغاة الذين ما برحوا يكررون مآسي الماضي من التاريخ مآسي أشد بأساً وأغزر دماً في حاضر التاريخ كأن أفكار المعتزلة تتنابت من جديد على قارعة مسار الإنسانية التي تعي عقائدها من جديد وتكنس خرافة النقل عن طريقها!!

(1) الجعد بن درهم: وهو ثالث (الآباء) المؤسسين لعلم الكلام ويرى أن الله خارج صفة الكلام وذلك بتنزيه الله عن صفات المخلوقات وقد تأول الآيات القرآنية التي تشير إلى تشبيه الله وتجسيمه تشبيهاً وتجسيماً بشرياً وأنه إذا كان القرآن مخلوقاً أي تاريخياً فإن الله غير تاريخي وغير مخلوق وأنه قديم قدم الأزل وخارج التاريخ.. وكان الجعد بن درهم يُلحق صفة القدم بالله وحده منفرداً في قدمه عن سائر المخلوقات ويرى (يوسف زيدان) قائلاً: «واللافت للنظر هنا ما نجده عند المؤرخين المسلمين من إشارات واضحة تفيد بأن الجعد بن درهم كان في أول أمره تلميذاً لرجل يسمى (أبان بن سمعان) وهو اسم دال بذاته على مسيحية هذا الأستاذ أو يهوديته وهي مسألة =

وقد قال فيه الحسن البصري: احذروا معبداً الجهني فإنه قدري، ويقول يوسف زيدان في كتابه (اللاهوت العربي): «وهذا الهجوم المتوالي من أئمة المسلمين القدامى إنما يعكس على نحو واضح تخوفهم الشديد على (العقيدة) الإسلامية القويمة من تلك الاجتهادات المضادة التي بدأ بها معبد الجهني ثم تدفق تيارها من بعده». وقد صار معبد الجهني كأب مؤسس نهل من معين النصارى وصار أستاذاً لواحد من مشاهير الآباء المتكلمين هو غيلان الدمشقي، وقد ظهرت هذه

= تستحق التأمل؛ ثم صار الجعد بدوره أستاذاً لآخر الآباء الأربعة المؤسسين لعلم الكلام». ولا أجد في ذلك غرابة فاللغة كانت عربية قبل الإسلام وفي الجاهلية كانت لها صولة أدب وشعر وقد كان المسيحيون من الأوائل في تأسيس وبناء وتشييد عمارة اللغة. وقد أتى الإسلام والقرآن وصقلها وجلى معانيها وحرك بهجتها في أصول علم الكلام قبل وفي الإسلام وبعده فأبوة اللغة العربية أبوة مسيحية وإسلامية إن جاز التعبير وهو ما رأينا صلة ذلك في علم الكلام المعتزلي!!

وقتل الجعد بن درهم شر قتلة ونكّل به على يد الأمير خالد بن عبدالله القسري بجامع واسط بالعراق في صبيحة عيد الأضحى وكان المسلمون يذبحون خرافهم. وبعد صلاة أول أيام العيد وكان الأمير خالد القسري يلقي خطبة العيد فجاؤوا بجعد بن درهم مقيداً وأجلسوه تحت منبر مصلى يوم العيد وبعد أن أنهى خالد بن عبدالله القسري خطبة صلاة العيد قال للمصلين ضحوا تقبل الله منكم فإني مضح بجعد بن درهم ونزل واستل سكيناً وذبح جعداً تحت المنبر وسط المصلين والناس ينظرون.. يا لها من ضحية بشعة نكراء لطخت كرامة وطهارة وسماحة بيت الله بهذا العمل الوحشي الذي اقشعرت له أبدان المصلين بما فيها اقشعر مجازاً بدن الله!!.

الصلة التي كانت بينهما جلية في عبارة الإمام الأوزاعي التي تناقلها معظم المؤرخين المسلمين وفيها يقول: «أول من نطق في القدرية رجل من أهل العراق يقال له سوسن كان نصرانياً فأسلم ثم تنصّر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد».

وهكذا يتلاقح العقل في العقل وبالعقل في اقتدار العقل... والعقل يستوي تلاقحه خارج الأديان وداخلها في علم الكلام كما أن علم الكلام في الأساس من آباء مسيحيين!!

من واقع أن اللغة العربية لغة المسلمين وغير المسلمين من العرب والأسبقية في هذا المجال كانت للمسيحيين...

وقد وصل كلامه إلى الخليفة فأرسل إليه من قطع لسانه فمات وكان أول شهيد معتزلي ما هان ولا تزحزح عن مبدئيته المعتزلية قيد أنملة وكان رمزاً من رموز المعتزلة في التاريخ!!

ويقال إن غيلان بن أبي غيلان الدمشقي هو أول من فكر في القدر وتكلم في القدر.. وغيلان كان عبداً (مولى) عند عثمان بن عفان وينقل لنا جمال الدين القاسمي في كتابه «تاريخ الجهمية والمعتزلة».. وكانت دار غيلان بدمشق في ربض باب الفراديس شرقي دمشق وحكى ابن عساكر أن عمر بن عبدالعزيز كان قد لام غيلان على رأيه فكفّ عن ذلك حتى مات عمر فلما مات سال غيلان في القدر سيل الماء وكان يفتي الناس لما حج مع هشام.. وقال الأوزاعي: «قدم علينا غيلان القدري في خلافة هشام بن عبدالملك فتكلم غيلان وكان رجلاً مفوهاً ثم أكثر

الناس الوقيعة فيه بسبب رأيه في القدر وقد حرضوا هشام بن عبدالملك عليه وأثاروه وأوغروا صدره فأمر بقطع يده ورجله ولسانه»..

وكان غيلان يلقب بالقدري وذلك لإسناده أفعال العباد إلى قدرهم وإنكاره قدر الله فيهم وقوله بأن الله غير خالق لأكساب الناس وأن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم وأنه ليس لأكسابهم صنع من الله .. ويقول ابن الأثير.. سموا قدرية لأنهم أثبتوا للعبد أن قدره يوجد في فعله بانفراده واستقلاله دون فعل الله وإرادته!!

ويقول يوسف زيدان في كتابه (اللاهوت العربي وأصول العنف الديني): «إن بعض مؤرخي علم الكلام من مشايخ السلف بالغوا في الأمر ورووا حديثاً نبوياً يذكر غيلان بالاسم ويقرنه بالشيطان الرجيم. فقد روى ابن عساكر عن أبي الفضل محمد بن حرب عن يعقوب الأنطاكي عن الوليد بن مسلم عن مروان بن سالم الجزري عن الأحوص بن حكيم عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال: «قال رسول الله: يكون في أمتي رجل يقال له غيلان هو أضرُّ على أمتي من إبليس».. وترى المعتزلة أن نهج العنعنة والقلقلة نهج يحمل في طياته أكاذيب وتلفيقات ما أنزل الله بها من سلطان..

فكم من الأحاديث والأقوال النبوية زورت على النبي وهو لم يقلها وإنما قيلت على لسانه زوراً وبهتاناً لأغراض سياسية وفي خدمة علماء السلف وحكام الأمويين وغيرهم. ورغم ـ أنه كما يروى ـ كان غيلان الدمشقي مشهوداً له بإصلاح الحال والتقوى والصدق ومن

غريب الحديث المنسوب إلى النبي محمد ما رواه علماء السلف عن عبدالله بن عمر، وكأنه نبوة معجزة بما سيكون من بعد زمن النبوة: إن (القدرية) التي يتمذهب بها غيلان الدمشقي «هي قدرية نصارى هذه الأمة ومجوسها» وفي رواية أخرى «القدرية مجوس هذه الأمة» وهو الحديث النبوي ذاته الذي استخدم من بعد للطعن في المعتزلة الذين سُمّوا أيضاً «بالقدرية»..

وكان الفكر محارباً منذ أن كان فكراً

وأحسب أن الفكر المعتزلي هو قاعدة جوهرية لأي تجديد إسلامي تحتم المرحلة تحقيقه بغية الخروج على السائد البليد في النقل والأخذ بمبدئية إعمال العقل في نصوص النقول القديمة التي لا تلائم منتجاً مستجد الحياة؛ فالحياة صهريج منتج ماهو فكري ومادي في الطبيعة والفكر والمجتمع ومنتج الإنسان وعقله الذي أصبح مدار الكون بكائناته المادية والروحية!!

ولا غرو فإن علم الكلام هو جوهر أي تجديد في منظومة الثقافة الإسلامية وذلك في بناء منظومة كلامية جديدة تستمد ملكتها من علم الكلام المعتزلي الذي يجسد حرية العقل وعقل الحرية في تجاوز موروث النزعة الجبرية في النقل التي تشل عقل الحرية لدى الإنسان...

وفي عدم تسييد المفهوم الديني على المفهوم الفلسفي وإعطاء الاستقلالية النسبية لحقيقة الدين وحقيقة الفلسفة ضمن بحوث مسالمة بين منظومة الدين ومنظومة الفلسفة منزوعة الكراهية والمعاداة وفي استهداف الحقيقة وتكريسها لمصلحة الإنسان من واقع أن الدين والفلسفة في الأساس يشكلان في مقاصدهما مصلحة الإنسان!!

وقد كان ابن رشد متأثراً فيما يراه أرسطو تجاه ازدواجية الحقيقة

بين الدين والفلسفة!! وقد التمس الحقيقة المعتزلية تجاه قدم العالم وعدم شمولية العناية الإلهية للأفعال الفردية وهنا يقول الكاتب المصري صلاح سالم: «يمكن التوقف عند مفهومين أساسيين لدى المعتزلة يؤسس أولهما للعقل وثانيهما للحرية. أما الأول فهو مفهوم القصدية الذي اعتبره القاضي عبدالجبار شرطاً لفهم الكلام الإلهي لكنها ليست تلك القصدية المستنبطة من الكلام ذاته (النص) بل القصدية النابعة من الفهم العقلي للوجود أو للعالم خارج النص أو اللغة والمنظمة في الكون والواقع، إذ يربط الإسلام بين نوعين من الآيات.. آيات الله الملفوظة القرآن الكريم وآيات الله المشهودة أي العلامات الكونية التي بثها في الطبيعة والوجود من حولنا وطلب منا تدبرها.. وهكذا فإن الأشياء لم تعد توجد في الطبيعة على نحو محايد بل تصير رموزاً يتحدث من خلالها المؤلف الكلي (الله). إنها شفرات يصير معها الكون كله كتاباً كبيراً من الرموز لا يستطيع قراءته إلا أولئك الذين يحيون في مستوى الوجود الحقيقي». أهناك وجود حقيقي... ووجود غير حقيقي... الوجود الحقيقي يؤخذ بالعقل... والوجود غير الحقيقي يؤخذ بالنقل.. هكذا كانت تقول المعتزلة في زمن كان العقل يأخذ مداه على النقل ويتجاوز سلطة نفوذه في الحياة!!

يقول المفكر والناقد المصري جابر عصفور: «ولو أننا نظرنا إلى تاريخ الفكر الإسلامي لوجدنا أن عالم الإسلام كان أقل العوالم تعقباً للفكر والكتابة على حين أنه كانت في العصور الوسطى رقابة

من قبل الكنيسة تحظر الكثير من الكتب وتصدر قائمة سنوية بالكتب المحظورة وتحرق الكتب أو تحرق مؤلفي الكتب في بعض الأحيان، في حين أننا نجد أن عالم الإسلام كان يخلو من هذه الظواهر، فكانت دائماً محاربة الفكر بالفكر نفسه وبالحوار، بل إننا نجد في العصر العباسي مؤلفاً مثل (ابن الراوندي) الملحد يكتب كتاباً يهاجم فيه الإسلام ويهاجم فيه كل المقدسات الإسلامية ومع ذلك فإن كتابه لم يصادر ولم يحرق ومؤلفه لم يحل إلى المحاكمة، وإنما الذي حدث هو أن مفكراً آخر وهو (أبو الحسين الخياط) قام بالرد على ابن الراوندي. وإن ما وصل إلينا كتاب الحسين الخياط ومنه عُرف ابن الراوندي وعرفت آراؤه لأن أبا الحسين الخياط كان يثبتها بنفسه في كتابه ثم يقوم بمناقشتها والرد عليها».

ومعلوم أن ابن الراوندي الذي كان معتزلياً وخرج على المعتزلة والدين في كتابه (الزمرد) طورد ولوحق ووجد آنذاك من يفتي بهدر دمه وقد عاش فقيراً مطارداً مختفياً عند أحد أصدقائه!!

فالعقل قديماً وحديثاً بين سندان فتيا الأصوليين ومطارق الطغاة من الحكام العرب، تحت راية الإسلام الملطخة بدماء أحرار ومفكري العرب!! وكأن فكر الظلام في نص النقل ما برح حتى يومنا هذا يلاحق أهل الفكر والعقول المستنيرة... وكأن المحنة ذاتها التي انتابت المعتزلة في العهد العباسي تأخذ تدابيرها بيننا جيلاً بعد جيل تفقد عقولنا وأفكارنا وتُلغي رؤوسنا من إشعاع التنوير!! يقول الشيخ

الحويني: إن نوال السعداوي (...) امرأة كافرة ودمها حلال، ويقول صاحب الفضيلة(!) عبدالله بدر للفنانة إلهام شاهين: «كم ممثلاً احتضنك وقبلك و(...) باسم الفن؟!».

وأثناء المحاكمة سألوا قاتل المفكر فرج فودة..

- لماذا اغتلت فرج فودة؟

- القاتل: لأنه كافر.

- ومن أي من كتبه عرفت أنه كافر؟

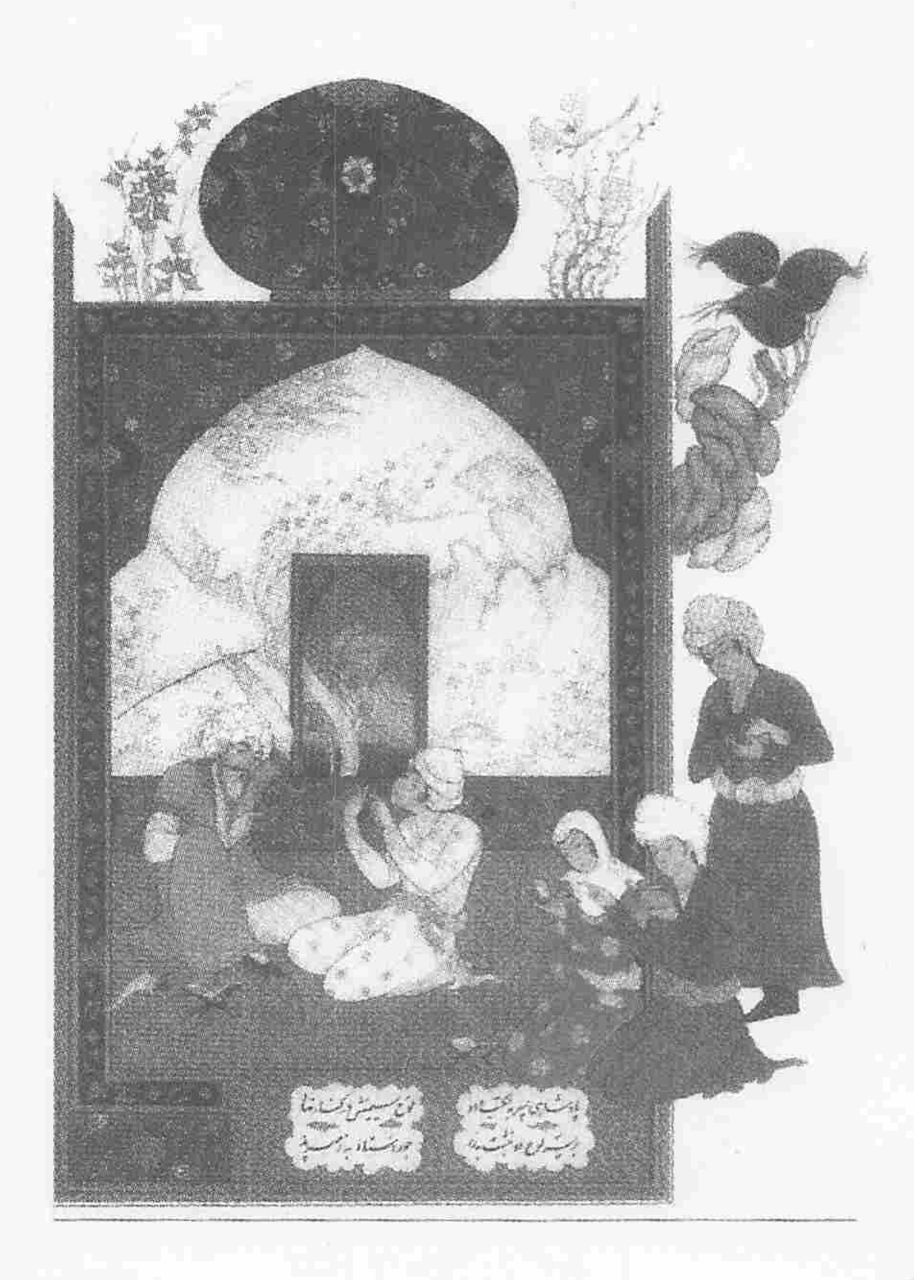
- القاتل: أنا لم أقرأ كتبه.

- كيف؟

- القاتل: أنا لا أقرأ ولا أكتب(!)

وكان الدكتور سيد القمني يرد على من يتهمونه بالكفر: «لا أعرف لماذا يهاجمونني والذين لا يعلمون أنه في إطار بحثي وعملي الأكاديمي قدمت مجموعة أعمال مهمة حركت الواقع المصري الراكد وقمت بمحاولات إصلاحية من الداخل وعملت على نزع أنياب من يستغل الإسلام سياسياً ومن جعله مصدر رزق على حساب البسطاء والطيبين من أهل مصر، كما أنه في اقتراع حر لمفكري مصر تم منحي جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية وذلك ما اعتبره التيار الراديكالي المتشدد تبني الدولة لهذا الاتجاه الفكري العلماني رسمياً مما أثار حفيظة التيار المذكور وطالب الدولة بسحب الجائزة مع إعلان ارتدادي وتكفيري وهو ما يعني في بلادنا أنني قد أصبحت

مهدور الدم ويمكن لأي مواطن قتلي ويكافئه الله بدخول الجنة. وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا، ومنذ تلك العهود الظلامية السالفة وحاكمية الجهل والظلام تلغ في دمائنا وتقتحم عقولنا بالحديد والنار تحت راية الحلال والحرام في الدين، والدين بريء من كل ما يدعون ويحقدون ويفبركون ويفتون!!».



الـروح نقيـض العـقل

معلوم أن التصوف لا يعطي قيمة للعلم والمعرفة.. وإنما يذرهما مدخلاً يستفيض في نسيانهما وتركهما في مدار الروح... دخولاً في هجير الذات المحجوبة في تجلياتها المضغوطة في ترسل عجز التدبير في حيثية: (اعلم أنك محجوب عنك بك.. وأنك لا تصل إليه بك ولكنك تصل إليه به)، ما يعني أن الخالق محجوب عن المخلوق وأنه لا يستطيع الوصول إليه إلا بذات رغبة الخالق في التوكل عليه... والتوكل عند المتصوفة اعتماد القلب على الله... دون اضطراب نفسي أو روحي... فالاضطراب يخل بحالة الاعتماد الكلي على الله في التدبير وفق مقولة: «اللهم دبرني فإني لا أحسن التدبير»، وهو ما يعني سخط المتصوفة على العقل وإلجام تمرده وتقييده بقيود الإيمان وإبعاد العلم عن مدارات مداركه: أي معارضة الإيمان بالعلم (!!!) وكان الأجدر معارضة الإيمان بالجهل.. والمتصوفة تتخذ من رب العباد وكيلاً لها ويدفعون بالعقل في مدارات الغيب بعيداً عن المسوغات الإيمانية من واقع إيمان «إن الله تعالى لا يجب عليه شيء عقلاً إلا ما أوجبه على نفسه فيقبله بصفة الإيمان لا بصفة العلم.. والله فعال لما يريد»، دون

أن يريد غيره... وهو المريد ولا رائد لعقل فوق إرادة عقله، فالله عقل أبدي يدير الكون كله بعقله وحده كأن لم يخص البشر عقلاً بعقله!!

هكذا كان النزاع بين المعتزلة والمتصوفة... بالرغم من أن المتصوفة تأثرت سلباً بشكل أو بآخر بأفكار المعتزلة.. وبنت عمارتها الروحانية على شيء من شذرات العقول المعتزلة رغم تناقضات جذرية مع العقل المعتزلي.. وكان تباين الفِرَق المذهبية ونشأتها في الإسلام كما هو معروف يعود إلى لقاح المعتزلة لقاح الفكر بالفكر كأول فرقة في الإسلام استنهضت العقل ونهضت به ضد خرافات الميثولوجيا في الإسلام وفي نصوص النقول التي ما أنزل الله بها من سلطان.. وكان فجرها التنويري بضرورة التجديد بحثاً نقدياً في الفكر الإسلامي وتطعيمه بمفاهيم فلسفية مادية عملية، من واقع أن المعتقدات الدينية تواكب التطور في معاني الحياة وما تظهره من قيم مادية وفكرية في مستجداتها... وفي عهد الخليفة المتوكل في القرن الثالث الهجري برز (ذو النون) المصري كأبرز شخصية صوفية وقد امتحن في قضية خلق القرآن وأخذ إلى السجن ونكل به لأنه أقر بقدم القرآن، وقد خرج على المعتزلة بصوفيته في وضع العقل في قبضة القضاء والقدر. وكان يناجي الله بقلبه فالمناجاة لا تكون إلا في سكون وخشوع القلب ولا تكون في وحشة تصدع العقل ونزوات شكوك حراكه. «أقول في الملأ يا إلهي وأقول في الخلا يا حبيبي أرغب إليك وأشهد لك بالربوبية مُقراً

بأنك ربي وإليك مردي ابتدأتني برحمتك من قبل أن أكون شيئاً مذكوراً وخلقتني من تراب ثم أسكنتني الأصلاب ونقلتني إلى الأرحام».

وهي مناجاة ذاتية من المخلوق إلى ذات الخالق وهي من خصائص القلب وليست من خصائص العقل... إن ما أدركه العلم أن العظة للعقل وما القلب إلا قربة عضلية لضخ الدم وليس لضخ الفكر في العقل وفق قول المعتزلة!!

والمتصوفة تعتزل الروح في الصعود إلى الله... خلاف المعتزلة التي تعتزل العقل في البحث عن الله!!

وقد كان طريق الـروح ـ لا العقل ـ عندها في البحث عن الحقيقة... ولا حقيقة عند المتصوفة ـ خلاف المعتزلة ـ إلا خارج العقل وفي ثنايا الروح كون العقل مجاز روح عند المتصوفة!! بالرغم من أن المتصوفة من الفرق الإسلامية التي خرجت من تحت أجنحة طبقات تأثير المعتزلة... خلال الانتفاضة العقلية والروحية التي هزّت بها شجرة الإسلام وجددت أغصانها لأول مرة في تاريخ المسلمين على وجه الأرض..

- **حتمية تعاكس الأفكار**

وقد نجد أن شميم أفكار المعتزلة لها مدارات نكهتها العقلية على أفكار كثير من المثقفين والمفكرين العرب ومن رموز المتصوفة

وخلافهم في الحركة الفكرية الثقافية والأدبية والعلمية، فالأفكار تتعاكس بدراية وبغير دراية أصحابها... وهو ما نسلط الأضواء عليه لاحقاً!!

طـه حسيــن

يوم أن سأل الطالب السعودي أستاذه في الجامعة لماذا لم يظهر في السعودية رجل مثل طه حسين؟! كان رد الأستاذ قائلاً: (إن ظاهرة طه حسين يجب أن لا تتكرر في مجتمعاتنا).

أي أستاذ هذا الذي لا يتمنى ظاهرة طه حسين أن لا تتكرر في أي مجتمع عربي... ظاهرة طه حسين امتداد حضارة وتاريخ وتطور اجتماعي تمرحل عقلاً.. عقلاً في عمق جدل التاريخ بتأثيره الداخلي والخارجي!! وفي عمر دولته (كم عمر دولتنا الحضارية).

حتى في مكتنفات العلوم والثقافة والمعارف على مدارج الجامعة يحاربون العقل ولا يتمنون لعقل مثل عقل طه حسين أن يكون مرحباً به في مجتمعاتنا!!

لقد كان طه حسين ينهل من علم الكلام المعتزلي وقد أعاد كرّة قراءة اللغة في التاريخ وفق قاعدة نشأتها في الشعر الجاهلي فوصل إلى نتيجة منطقية كون الشعر واللغة لا يظهران فجأة وإنما وفق مراحل التطور المادي في المعاناة والتهيكل خارج المقدس من كلام الله، وهو ما أدى إلى تضارب لغة الفصاحة الجاهلية بلغة القرآن الأم الذي أدى إلى لغط الفصاحة الجاهلية بلغة القرآن وكأن طه حسين يحاكي

المعتزلة في خلق القرآن، الأمر الذي أدى إلى إرباك التقصي العلمي في البحث والتدقيق، فأثارت الأصولية الدينية موجات عارمة ضد طه حسين من خلال تكفيره وإباحة دمه والوقوف ضد إبداعه المعرفي في الفكر والثقافة، وقد استمد الدكتور طه حسين منهجه في الإبداع الفكري والمعرفي من منهج ديكارت في إخضاع نصوص الحياة بما فيها نص اللغة والدين كنصوص قابلة للتأويل وكقراءة جديدة قابلة للرفض والقبول والتعديل، فهي من البشر ومن صنع البشر ومن الظروف والتاريخ التي عاشتها تلك البشرية!! ظروف لا يمكن أخذها بالنقل وإنما بالعقل!!

يقول طه حسين: «من حق الناس أن تخطئ وويل لأمة لا يعاقب الناس فيها على الخطأ.. وويل لأمة لا تعرف الحرية ولا تقدر ولا تقيم أمرها على القصد والاعتدال وإنما تقيمه على الغرور».

زكي نجيب محمود

اشتهر بأديب الفلاسفة كون نشاطه الفكري ارتبط بالأدب والفلسفة وهو رائد الثقافة العربية في الفلسفة التنويرية وتقاليدها الحديثة في جدية البحث وموضوعيته على قاعدة احترام عقل الإنسان ودوره في تسييد منطق العقل على منطق النقل في خرافة الميتافيزيقيا.. وفي كتابه: «المعقول واللا معقول» يتأمل زكي نجيب محمود بعقل ثاقب محمول بنزعات معتزلية إذ يقول: «تفتح الطبيعة بابها لكل ذي عين فيقرأ قوانينها في ظواهرها ثم يتعامل معها على أساس تلك القوانين، وعندئذ يركب هواها ويغوص في مائها ويستثيب أرضها ويستخرج خبيثها أشكالاً وألواناً، على أن يتم ذلك كله في إطار قوانينها.. على غرار ما يتحدث إنسان إلى إنسان بلغته ليتفاهما وذلك هو سبيل العقل ولكن سبيل العقل إنما هو سبيل الأقوياء الصابرين على إمعان النظر في ظواهر الطبيعة لمعرفة طرائقها في السير والفعل والتفاعل. أما إذا أقعد العجز نفراً عن متابعة العقل في سبيله ثم ضلوا عن رغبتهم في استخدام الطبيعة لأغراضهم فماذا يبقى أمامهم سوى أن يلتمسوا لأنفسهم طريقاً مختصراً إلى الغاية المنشودة».

لا طريق إلى الغاية المنشودة في المعرفة وإمساك الحقيقة من

تلابيبها وكشف أسرارها إلا عبر العقل، ففي تراثنا القديم ترفض أحاديث عن السحر والتنجيم والتعزيم والرقي والتمائم وسائر أعضاء هذه الأسرة غير الكريمة من أدوات الجهل ـ كما يقول ـ ونحن نجد هذا الرفض لدى المعتزلة (!!!)

ويرد على الغزالي في تسفيه عقل الإنسان قائلاً: «لماذا يقول الغزالي هذا؟ إلى أي شيء يُمهد بهذه المقدمة؟ إن مرماه هو أن ينتهي إلى نتيجة يريدها وهي من ينكر قدرة الإنسان على الخوارق بقواه الروحانية فإنما يبني إنكاره على عدم إلفة لها في خبرته». هكذا يفضل الغزالي خوارق القدرات الروحانية على خوارق القدرات العقلية!!

ويعود الدكتور الفيلسوف المبهر في إثارة الجدل زكي نجيب محمود قائلاً: «كتب الغزالي ما كتبه دفاعاً عن اللامعقول وهو حر في اختيار موقفه، فلا نقبل من تراثهم إلا المعقول وحده» وهو ما حددت المعتزلة موقفها تجاه التراث الإسلامي في الأخذ بالمعقول وترك اللامعقول!!

جابر بن حيان

ينزع بالإنسان في إنسانيته نزعاً إلى مقام الألوهية، فهو في الإنسانية مستمر التوثب لاكتشاف حقيقة أسرار التجدد في طبيعة الكون من الحقيقة البسيطة إلى الحقيقة المعقدة في جهد التفكير والتأويل والتفسير والتأمل، في سبيل تحقيق أسمى صورة للإنسان في معارفه على وجه الأرض... يعيش الفلسفة ويجعلها الممر الأوحد في تفكيره.. ويأخذها وتأخذه يستهويها وتستهويه يجاسدها وتجاسده فيصبح في تأمله كأنه عمارة فلسفة قائمة بذاتها وفي ذاتها، كأن لا إيمان لديه إلا الفلسفة فيقول جازماً: «إنه ليس براقٍ من أغفل صناعة الفلسفة ولكنه راسب مضمحل إلى أسفل دائماً من يحاربها». من كتابه (إخراج ما في القوة إلى الفعل).

إن تفكير جابر بن حيان ليس كونه عالماً طبيعياً وكيميائياً، بل إنه يحتوي الكون والطبيعة بالفلسفة ويُمعنها عقلاً حراً مؤدلجاً بالفلسفة إن سمح التعبير!!

وهو يؤمن بالعلم إيماناً لا يضاهى كما يُلخصه زكي نجيب

محمود بهذا التساؤل: «كيف يظن العجز بالعلم دون الوصول إلى الطبيعة وأسرارها؟ ألم يكن في مستطاع العلم أن يجاوز الطبيعة وما وراءها؟ فهل يعجز عن استخراج كوامن الطبيعة ما قد ثبتت قدرته على استخراج السر مما هو مستور وراء حُجبها؟ وهو أن جاء هذا التساؤل في علم الكيمياء بالذات، إلا أن هذا التساؤل يأخذ مدلوله بشكل عام في سكون الطبيعة وحركتها وفي الكون كله»!!

«السؤال هنا ذو شأن هام في تحديد منهجه العلمي، ذلك بأن الرأي في مصدر المعرفة هو المقياس الفاصل بين منهج ومنهج أو بين من يؤمن بالعقل الإنساني وبالوجود الموضوعي للكون والطبيعة وبين من لا يؤمن».

أمر يتضمن رأي المعتزلة في تبني عقيدة العقل والمعقول ورفض عقيدة النقل والمنقول.. النقل ينكر ولا يقر بالوجود الموضوعي للكون خلاف العقل في بنيته الجدلية الذي يرتكز على نظرته الفلسفية إلى الوجود الموضوعي للكون!!

ويرى جابر بن حيان «أن النفس لا تكون عالمة أولاً بالضرورة». وهذا يعني أن العلم ـ بكل شيء ـ لا يوجد في النفس بفطرتها، بل إن النفس تكتسبه من الخارج في الطبيعة والكون في تجاربها وفي ممارساتها وفي علاقة العقل بالعقل الآخر وفي مسعى الحياة... والنفس مرتبطة بالعقل في تكونه ومسعاه.. ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ

إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ (النجم: 39)... ويقول الدكتور حسين مروة في كتابه (تراثنا.. كيف نعرفه): «إن جابراً يعتمد في اكتساب المعرفة على تجارب الأشياء واستخلاص النتائج والقوانين الكونية من هذه التجارب لا على تلقن الوحي كما ظهر لنا من بعض نصوصه، فهل تراه إذن، وقع بالتناقض في رأيه بمصدر المعرفة؟»

وأحسب أن الازدواجية والتناقض لدى معظم رواد الفكر المعتزلي والمتأثرين بهذا الفكر الذي تفتح لهم في اختراق النقل بالعقل وتفنيد مسوغاته عبر العقل لأول مرة في التاريخ هيّأ الأرضية الازدواجية النفسية بين النقل والعقل، ازدواجية ما هو معقول وماهو غير معقول.. فالانتقال من النقل إلى العقل لا يأخذ جذرية نقاوته وإنما تبقى رواسب العقل في النقل ورواسب النقل في العقل لدى مفكري المسلمين والعرب بشكل عام، بتأثير ثقافة العقل في ثقافة النقل.. رواسب التأثيرات المتبادلة أبقت شذرات من النقل في العقل وشذرات من العقل في النقل، بهذا يمكن استبيان الازدواجية لدى هذا المفكر أو ذاك الآخر.. وتلعب النصوص الإيمانية الدينية تأثير واقعها لكونها تنطلق من ثبات نصوص النقل وليس من حراك نصوص العقل، وبجانب ذلك فالأوضاع الاجتماعية القائمة على حاكمية برهانية النقل في الوحي تُفعل برهانية إيمانيتها على برهانية وإيمانية الفكر الآخر ووجدانية استقلال عقله.. كما أن عامل «التقية» يأخذ مداه على كثير

من النصوص الفلسفية الإسلامية والعربية في المواربة وتغليف العقل بمفاهيم ينكرها ولا يقرها نقلاً ووحياً.. وهو ما نراه في قول الشاعر:

هــذا الـذي جعل الأفكار حـائرةً وصير العــالِم النحريــر زنــديقا

عقول حائرة بين النقل والعقل بين ما يؤمن به أحدهم وبين ما يؤمن به الآخر أو الحاكم الذي يسيد عقله ونقله على نقل وعقل الآخر... أنت إذا لم تنْصَعْ لعقلي ونقلي فأنت تتزندق بعقلك ونقلك علي وتشق طريق الكفر على أمة المسلمين جميعاً... ولم تكن الازدواجية من الطبيعة البشرية في شيء وإنما واقع إملاء القوي على الضعيف وإملاء الحاكم على المحكوم بقوة إرادة النقل ضد إرادة العقل، مما شكل هذه الازدواجية التي نراها لدى الكثيرين من المفكرين العرب والمسلمين بشكل عام!!

ويرى جابر بن حيان أن في الأزل الكائن عناصر أولية أربعة: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة تجسدت بطبيعة حركتها وسكونها في تركيبات متعددة ومتنوعة... وكان من جراء الحركة والسكون أن أنتجت هذه التركيبات المادية المتعددة والمتنوعة ولولا ذلك، أي لولا الجدل لساد صمت العدم الكون... تلكم نظرة جدلية متقدمة تمخض عنها عقل جابر بن حيان في زمن كانت عقول المسلمين متمددة على فراش مصادر النقل المعادية لمصادر العقل.. يقول المفكر اللبناني التنويري حسين مروة في كتابه (تراثنا كيف نعرفه): «نحن نعرف أن

المنهج المعاصر للبحث العلمي القائم على الإيمان بالعقل والعلم وعلى كون الاكتساب من الوجود الخارجي هو مصدر المعرفة، وعلى موضوعية وجود الكون هو المنهج الذي بدأ خطوته الأولى بمشاهدة الجزئيات الخارجية المادية المراد تفسير ظاهرتها، ثم تكون الخطوة الثانية باستنباط النظرية المجردة من هذه المشاهد، ثم تأتي الخطوة الثالثة والأخيرة بتطبيق النظرية على الجزئيات الخارجية المادية أي بالعودة من النظر الذهني التجريدي إلى الواقع المادي الجزئي لتجربة صدق النظرية المستنبطة». وهو ما نرى مقاربته لدى جابر بن حيان قائلاً: «... قد عملته بيدي وبعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صح وامتحنته فما كذب».

وفي نظرته إلى وحدة الكون في الحركة وفي ترابط الأشياء التي هي غير مستقلة بعضها عن بعض بحوادثها وبحركتها وسكونها في كمها ونوعها، فالأشياء كلها تشكل وجوداً للأشياء كلها وهي في كينونة أبدية الحركة والسكون في الاختفاء والظهور؛ إذ يقول حسين مروة: «فجابر إذن، يأخذ في فهمه للكون بفلسفة عقلية ترى ظاهرات الكون وأشياءه وحوادثه مترابطة يجمعها ويحركها ويولدها قانون السببية الشامل، تلك نظرة تنطوي على نواة ديالكتيكية يستهدي بها جابر في كثير من بحوثه الطبيعية ولاسيما الكيميائية، ولكنه حيث يبحث في «الطلسمات» نراه يخالف نظرته العلمية العقلية هذه ويُهملها جانباً»،

وهي خاصية نجدها طافحة في جوانب الأفكار المعتزلية والمتأثرين بخصائصها الفكرية في تكريس نص العقل على نص النقل..

الـرازي

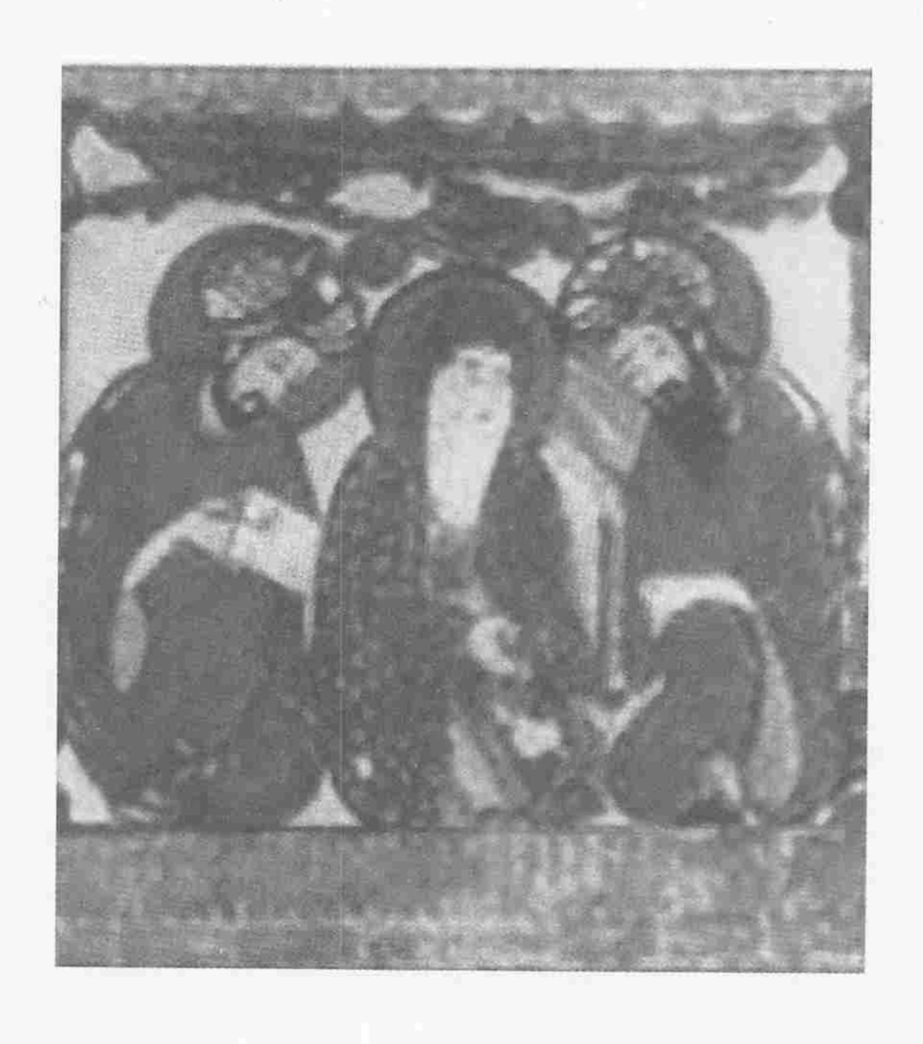
هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي.. لقبه انتماء إلى مدينته الري حاضرة من حواضر الإسلام الكبرى آنذاك في بلاد فارس.. ترك الغناء يوم كان مغنياً في شرخ شبابه والتحق بالطب والفلسفة، فالغناء كما يقول: «كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستملح». وكأنه يقول: الغناء للنساء وليس للرجال.. وأرى أنه لم يكن مغنياً ناجحاً ولذا ترك الغناء وذهب يبحث عن تجارة أخرى. يقول الذهبي في (العبر) كما ينقل لنا هادي العلوي في كتابه (شخصيات غير قلقة في الإسلام): «إن فكره اشتد بعد الأربعين وكان في صباه مغنياً بالعود، أي أنه جاء إلى عالم المعرفة الفلسفية العلمية متأخراً. ومع ذلك فقد زادت مؤلفاته على المئتين وعاش في صراع مع الوقت لتدارك ما فاته، ومن هنا قولهم إنه كتب حتى انخلعت كتفه وقرأ حتى عميت عيناه».

وقد برز في الطب والفلسفة والكيمياء، إذ اشتهر الرازي طبيباً وفيلسوفاً متورطاً بظلال الشك في تأمل الحياة في خلق الله. يقول أبو حيان التوحيدي عنه: «إنه دقيق الكلام يشك في النبوات كلها وله أدب واسع». ويقول ابن النديم: «كان كريماً متفضلاً باراً بالناس حسن

الرأفة بالفقراء والأعلاء حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم».

وفي الواقع فإن الروح الفلسفية لدى أبي بكر محمد بن زكريا الرازي تغرف من شذرات المعتزلة الفكرية والفلسفية، وكأن أبا إسحاق ابراهيم بن سيار النظام وهو معتزلي مبرز في علم الكلام والفلسفة يماهيه شذرات أفكاره الفلسفية «ولو قلت إن الرازي ولد منه لم أكن مغالياً»، أي أن الرازي ولد فلسفياً من فلسفة المعتزلي أبي اسحاق ابراهيم بن سيار النظام.. ويختزل الدكتور عبدالرحمن بدوي في كتابه (من تاريخ الإلحاد في الإسلام) قائلاً: «الرازي إذاً، يؤمن بإله خالق حكيم ولكنه لا يؤمن بالنبؤة والأديان وينزع نزعة فكرية حرة من كل آثار للتقليد أو العدوى ويؤكد حقوق العقل وسلطانه الذي لا يحده شيء وينحو منحى تنويرياً شبيهاً كل الشبه بحركة التنوير عند السوفسطائيين اليونانيين وخصوصاً بحركة التنوير في العصر الحديث في القرن الثامن عشر، ويدعو إلى إيجاد نزعة إنسانية خالصة خالطتها روح وثنية حرة مما يجعل من الرازي شخصية فكرية من الطراز الأول وواحداً من أحرار العقول النادرين في التاريخ ومن أجرأ المفكرين الذين عرفتهم الإنسانية طوال تاريخها. ولا يسع المرء إلا أن يمتلئ إعجاباً بهذا الجو الطليق الذي هيأه الإسلام للفكر في ذلك العصر مما يدل على ما كان عليه العقل الإسلامي في ذلك العصر من خصب ونضوج.. أترى يتحقق مثل هذا الجو مرة أخرى في حضارتنا العربية

التي نأمل في إيجادها». حقاً لقد أوفى الأستاذ بدوي حق هذا الرجل العظيم، الذي انفلت من قمقم العقل المحجور في النقل. وللمعتزلة في هذا المجال نصيب في تحرير العقول المسلمة من النقول وإطلاق حريتها في الحياة من أجل كشف أسرار الحياة عقلاً لا نقلاً كأول فرقة في الإسلام تكرس فلسفة عقل الكلام وتديرها بحثاً عن حقيقة الكون المتعثرة إسلامياً في رمال النقول!!



معروف الرصافي

... وقد شق الفكر المعتزلي طريقه تأثيراً في عمق الثقافة العربية والإسلامية وخلخل هيكلية نصوصها النقلية وفكّ إسار رتابتها وحررها من الخرافة التي لا تمت إلى حركة الفكر إلا بحركة خرافتها ودفعها عقلاً يستجلي طريق النور في عمق الظلام بحثاً عن الحقيقة في الكون من خلال العقل وليس من خلال النقل... وكان الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي في قصائده وفي كتابه المثير للجدل (الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس) يجسد ثورة العقل في ثورة العلم وله قصيدة طويلة يشيد بـ (أبو بكر الرازي) مطلعها:

ألا لفتة مني إلى الزمن الخالي   فتغبط من أسلافنا كل معضالِ
تلونا أناساً في الزمان تقدموا   وكم عبرة في من تقدم للتالي
ألا فاذكروا يا قوم أربع مجدكم   فقد درست إلا بقية أطلالِ

ثم يقول:

فعدت بأوساط القرون فجاءني   أبو بكر الرازي فقمت لإجلالِ

ثم يقول:

حكيم رياضيّ طبيب منجّمٌ   أديب وفي الكيمياء حلال إشكالِ
أتى فيلسوفاً للنفوس مهذباً   بأفضل أفعال وأحسن أقوالِ

وبالمناسبة فقد درس والدي الشيخ يعقوب بن يوسف الفارسي في حلقة العالم الجليل الشيخ محمود شاكر الألوسي في بغداد، وينقل أخي يوسف عن والدي رحمهما الله أن معروف الرصافي كان يحضر حلقة الشيخ الألوسي ويناكف بأفكاره والسُكر يتعتعه ورائحته تفوح من «العرق»، إلا أنه كان يحظى باحترام الجميع لسطوته الشعرية. فالعراقيون بشكل عام يجلون ويحترمون الشعراء وخصوصاً قامة شعرية كقامة الرصافي.. وفي الخمسينيات زرت بغداد وذهبت لزيارة قبر معروف الرصافي وكان أحد الزوار خطّ هناك على قبره «أضاعوني وأي فتى أضاعوا».

وفي كتاب معروف الرصافي (الشخصية المحمدية) المثير جداً للجدل يكر ويفر الرصافي حائماً في عقل مستنير في دوائر المتكلمين من المعتزلة وهو يزيح بإزميل العقل قشور ما لا يعقل في الدين والتراث واللغة ويقول عقلاً ما يعجز عنه العقل الآخر جرأة قوله... في البحث عن المعقول بين الأشواك الحادة في اللامعقول... كأن كلماته العقلانية تجتث أشواك نقل النصوص وتحرر نصوص العقل من أشواكها السامة!!

وهو يستطرد في قوله: «إن الله منزه عن المكان فناسب أن نقول كلمة في هذا الموضوع على سبيل الاستطراد فنقول: لقائل أن يقول: إن العقل لا يستطيع ان يتصور موجوداً لا في مكان ولا في زمان وقد قال المعري في لزومياته:

قلتم لنا خلق كريم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ولا زمان إلا فقولوا
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

فما يراد بقولهم إن الله منزه عن المكان وعن الزمان؟ وجواباً لسائل هذا السؤال أقول: إن العبارات بأجمعها تقصر عن تعريف ذات الله وقد قلت في قصيدة:

وفي النفس ما أعيا العبارة كشفه وقصر عن تبيانه النظم والنثر
ويا رُبّ معنى دق حتى تخاوصت إليه من الألفاظ أعينها الخزر

ولكني أعتقد أن أحسن عبارة تقرب بعض الشيء من حقيقة الذات الإلهية هي الوجود الكلي المطلق اللا نهائي؛ وإن أبلغ كلام يحوم حول الذات الإلهية هو ما جاء في القرآن من قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ (الحديد: 3). والمعنى الصريح في هذه العبارة: أنه كل شيء وأنه الوجود الكلي اللانهائي فمن المحال أيضاً أن يتصور العقل وجوداً كلياً لا نهائياً في مكان دون زمان لا وجود لهما إلا به أي بالوجود الكلي اللا نهائي فكأنهما مندمجان في هويته ليسا بخارجين عنها».

إن مستحيل ما يرفضه العلم والعقل العلمي أن يكون زمان بلا مكان أو أن يكون مكان بلا زمان من واقع ارتباطهما ديالكتيكياً في تكوين الحياة وسيرورة التطور في إيقاع كم وكيف ذات الزمان والمكان في تاريخ التطور!!

يا واحد الذات كثير السمى ومن تجلى ظاهراً واحتجب
أنت لدى الفرس تسمى خدا وأنت تسمى الله عند العرب

ويشير معروف الرصافي في كتابه (الشخصية المحمدية) حيال حادث الاعتزال الذي عرفت به المعتزلة في حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة فكانت أول انشقاق مذهبي حدث في الوحدة الإسلامية.. وأحسب أن الانشقاق في بذوره منذ سقيفة بني ساعدة.. نعلم في ظروف حادثة ما عرف بالمعتزلة أن حسن البصري كان في حلقته هذه يتكلم في المسائل الدينية من أصول وفروع وعقائد وأنه كان يتعمق في البحث عنها إلى درجة تدعو إلى الاختلاف فيها بالرأي والنظر كما تدل عليه مخالفته واصل بن عطاء في إثباته منزلة ثالثة بين المنزلتين الكفر والإيمان للمسلم الذي يرتكب كبيرة من الكبائر فلا يكون مؤمناً يستحق الثواب بالنعيم المقيم ولا كافراً يستحق الخلود في نار جهنم..

وقد كان الحسن البصري ومن حوله في غنى عن البحث في هذه المسائل التي ما أنزل الله بها من سلطان ولا جاء من رسول الله بها كلام أو بيان ولم يتكلم عنها المسلمون في عهد الرسول ولا في عهد الخلفاء الراشدين من بعده. وأية فائدة للمسلم في اعتقاده بأن مرتكب الكبيرة يكون في منزلة بين الكفر والإيمان بل ما هو الداعي إلى الكلام في مثل هذه المسائل الفارغة والقرآن يقول بأعلى صوته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ (النساء: 48).

وكان من الواضح أن معروف الرصافي ميال إلى جانب واصل بن عطاء في خلافه مع الحسن البصري بشكل أو بآخر.. إذ يقول معروف الرصافي: ونرى الحسن البصري يطلب من واصل بن عطاء الاعتزال عن حلقته استنكاراً لقوله وتبرؤاً من رأيه فكان مثله ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ (الحشر: 16)..

ويرى معروف الرصافي أن الحسن البصري من الشخصيات المريبة في تاريخ الإسلام «الذين أسلموا قهراً ولم يكن إسلامهم إلا مكراً بالإسلام وكيداً لأهله..».

ولا يمكن لأحد أن يشق قلب أحد ويقف على إسلامه من عدمه.. وأن من غير الإسلام تلمس إسلام الآخر بالنيّات أو مزاج المشاعر وهجس الآخر بهواجس الوعي الباطني!! ولا يقف الرصافي عند ذلك فيقول عن البصري: أما أنا فأصور لك أولاً هذه الشخصية بما قال عنها القوم في كتبهم ثم أبدي لك ما يكون لي من ملاحظات وأترك الحكم عليها لك أيها القارئ الكريم..

«ومن أغرب ما قرأته في وصفه ما ذكروه في تقواه من أنه إذا أقبل كأنه أقبل من دفن حميمة وإذا جلس فكأنه أسير أمر بضرب عنقه وإذا

ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له وهذا لعمر الله أكبر ما يدعو إلى الريبة من أحواله».

وما كان الحسن البصري بطبيعته الإيمانية إلا غارق حتى أخمص روحه في رسائل التراث في النقل وفي إدارة ظهره إلى كل ما هو عاقل ومعقول ما كنت أدري ولو كان الرصافي حياً لسألته!!

الشيخ الأكبر ابن عربي

عقل عالم وعقل مؤمن.. وبين العقلين هوة تساؤل.

العالم بالشيء ليس بالضرورة المؤمن بالشيء.. أما المؤمن بالشيء فهو العالم به أيضاً.. وليس المؤمن قبل أن يحيط علماً بالشيء الذي يؤمن به أما العالم بالشيء والمحيط به فليس بالضرورة أن يكون مؤمناً به!!

ويرى ابن عربي في التمييز بين العلم والتوحيد و«الإيمان» بالتوحيد كما يشير لنا الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه (هكذا تكلم ابن عربي): «العلم بالتوحيد لا يتوقف فيما يبدو على إرسال الرسل والأنبياء، بل هو تجربة روحية تخترق طبقات الوجـود الظاهر وتتواصل ـ أو يتواصل صاحبها ـ مع باطن الوجود وروحه».

أظاهر للوجود... أباطن للوجود وروحه؟! ظاهر الوجود ضمن العقل أما باطن الوجود وروحه فهو خارج مدارك العقل وضمن مدارك النقل وهو ما اختلف عنده المعتزلة..

التجربة ضمن الملموس ولا يمكن أن تسميها تجربة إذا بدت أنها خارج الملموس.. الملموس المعقول.. والمنقول المجهول!! فكيف يمكن تجربة المجهول وهو مجهول خارج تجليات المعقول!!

التأثر بالمعتزلة لا يعني أن يكون المتأثر معتزلياً وقد يصبح معتزلياً في أن تأخذ أفكاره شذرات من أفكار المعتزلة فالكثير من أفكار ومواقف ابن عربي تأخذ منحاها المعتزلي وإن لم «يتلفظ» بها.. وفي مواقفه تجاه النص فإنه يخضعه لمنطق العقل، فالعقل لدى ابن عربي ينجلي بوضوح خارج الترهات الكثيرة من نصوص النقول!!

ويقارب ابن عربي في رؤيته للمعتزلة في عدم تجزئة الحقيقة، فالحقيقة هي حقيقة في ذاتها إلا أنها تأخذ أشكالاً وألواناً متعددة وصفات مختلفة وهي «تتلون كالماء بتلون الإناء رغم أن الماء في حقيقته لا شكل له ولا لون. كما يكثر ابن عربي من تكرار هذا النموذج ـ الماء والإناء ـ نقلاً عن أسلافه».

رق الزجاج وراقت الخمرُ فتشاكلا فتشابه الأمرُ
فكأنما خمر ولا قدحٌ وكأنما قدح ولا خمرُ

«صفاء الخمر يمثل الحقيقة في صفائها حيث لا شكل ولا لون.. ورقة زجاج» الكأس «تمثل قلب العارف الذي حلّت فيه الحقيقة في صفائها».

وضمن تعدد العقول تتعدد الرؤى... وأرى أن شذرات المتصوفة الفكرية لها شذراتها الفكرية في المعتزلة والعكس صحيح، وهو ما نراه عند الحلّاج وابن عربي والسهروردي مروراً بعمر الخيام وابن سينا وآخرين!!

وللشيخ الأكبر ابن عربي موقف تجاه بدء الوجود يمالئ موقف المعتزلة وهو ما يؤصّل ذلك شعراً:

انظر إلى بدء الوجود وكن به فطناً تر الوجود القديم المحدثا
والشيء مثل الشيء إلا أنه أبداه في عين العوالم محدثا
إن أقسم الرائي بأن وجوده أزل فبر صادق لن يحنثا
أو أقسم الرائي بأن وجوده عن فقده أجرى وكان مُثَبّثا

وتظهر قوة ابن عربي الأدبية والفلسفية في ما يخاطب عصره وكأنه يحيا بيننا ويخاطب عصرنا... وأزعم أن الحب لا عصر له بل إنه عصر كل العصور.. والحب قابل لكل الأديان والعقائد من الوثنية إلى إليهودية والمسيحية والإسلام فيما يُردده ابن عربي شعراً شامخاً يحتضن كل عصور الأديان بالحب والعشق للإنسان!!

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل ملّة فمرعى لغزلان ودير لرهبانِ
ومعبد أوثان وكعبة طائفٍ وألواح توراة ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحب أنّى توجّهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

إن جوهر الدين الحب... ولا قيمة لدين بلا حب... كما لا قيمة لإيمان بلا حب!!

ما أحوجنا إلى دين الحب الذي ينادي به الشيخ الأكبر ابن عربي.. ونحن نهب كراهية الإرهاب والبغضاء التي تعصف بحياتنا!!

زيد بن علي

اختلف الرواة والمؤرخون تجاه العلاقة الفكرية بين زيد بن علي وواصل بن عطاء الغزال في تأثر زيد بن علي بأفكار المعتزلة، بل إن البعض يُدرج زيد بن علي مدرجاً معتزلياً إثر العلاقة والصداقة الحميمة بينهما إذ إن زيداً تتلمذ على يد واصل بن عطاء الغزال ونهل من أفكاره كما يشير إلى ذلك الشهرستاني..

إلا أن جعفر السجاني في كتابه (الزيدية في موكب التاريخ) لا يشكك في ذلك فقط وإنما يستهجن ذلك ويرفضه رفضاً تاماً قائلاً: «لم يذكر أحد من المؤرخين ولا أصحاب المقالات تتلمذ زيد بن علي على واصل قبل الشهرستاني وإنما انفرد هو بذلك وتبعه غيره فلا تجد له أثراً في فرق الشيعة للنوبختي ولا في مقالات الإسلامية للأشعري ولا الفرق بين الفرق للبغدادي ولا لابن حزم في الفصل وعلى ذلك فلا يركن إلى كلام تفرد به الشهرستاني البعيد عن بيئة زيد وعصره.. ولا أظن بزيد ولا بإنسان دونه تربى في أحضان البيت النبوي أن يتتلمذ في الأصول والعقائد على أمثال واصل صنيع أبي هاشم في المدينة ثم الحسن البصري في البصرة والمتفرد بآراء وعقائد لا يساندها علماء

أهل البيت وأئمتهم وأظن أن المصدر لما ذكره هو تعاطف الزيديين مع المعتزلة في العصور اللاحقة».

وأرى في ذلك تحقيقاً مغالياً لا يحتكم إلى الموضوعية وإنما انحياز ضد المعتزلة فالأفكار تغزو الأفكار.. والعقول تقتحم العقول لأناس من أطهر البيوت وأنصع الأرومات وأجلّ السلالات.. فالعقل يؤثر في العقل والفكر يقتحم الفكر بغض النظر عن الأشخاص ومكانتهم الطبقية في المجتمعات.. وبشكل عام فقد كان لفكر المعتزلة تأثير كبير في جمهور المسلمين كأول فرقة في الإسلام أخذت بالعقل واعتزلت النقل وكان هذا التأثير قد دفع الكثير من أئمة المسلمين إلى العمل على تجديد الفكر الإسلامي وتحريره من الكثير من الترهات والخزعبلات التي تسيء إلى الإسلام والمسلمين وتأخذهم على طريق الفلسفة وتمحيص العقل...

فالتأثر بالفكر هو من طبيعة الأفكار في التأثير والتأثر سلباً أو إيجاباً وليس لأحد يفكر بعقله خارج دوائر التأثير والتأثر في الحياة!! ولا يمكن لصديق يزامل صديقاً إلا ويكون مؤثراً أو متأثراً به!! فلماذا لا يكون زيد بن علي قد تأثر بفكر واصل بن عطاء ليس بعجر وبجر الفكر المعتزلي وأركانه الخمسة وإنما ركن أو ركنين أو ثلاثة، ويُذكر أن زيد بن علي يأخذ ببعض مرتكزات المعتزلة العقيدية في مبدئية الوعد والوعيد.. والمنزلة بين المنزلتين.. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي من أصول فقه المعتزلة الخمسة... فالكثرة الكاثرة

من المتعلمين والمثقفين والتنويريين والذين يبحثون عن الحقيقة يكرسون العقل على النقل ويجانبون الخرافة في التراث ويتجاوزون منطلقاتها الميتافيزيقية المرفوضة عقلاً لدى من له عقل ويحترم عقله.. ومثل هؤلاء لا يمكن إدراجهم إدراجاً معتزلياً وإنما يأخذون شذرات أفكارهم التنويرية من شذرات الفكر المعتزلي.. وليس من الضرورة أن تأخذ الفكر المعتزلي بقضه وقضيضه لكي تندرج تحت المظلة المعتزلية الرافلة بتكريس نصوص العقول على نصوص النقول!!

ليس من الحكمة لأحد أن يعادي فكر الآخر.. فالأفكار لا تعادى من واقع أنها ترتبط بالحرية ولا حرية لمن يعادي حرية الآخر...

والفكر في حرمة واحترام أفكاره... ولا حرمة ولا احترام لمن لا يحترم فكر الآخر... الفكر يتسم بأخلاق المعارف في البحث لاكتشاف الحقيقة... والحقيقة معرفة... والمعرفة فكر في الحقيقة والحقيقة حرية... والحرية كرامة عقل والعقل كرامة حرية.. ولا حرية ولا كرامة ولا حقيقة ولا معرفة لكل من يمتهن العقل بما فيها العقل المعتزلي الذي شنج البعض... أن يكون زيد بن علي في صداقته الحميمية لواصل بن عطاء الغزال تأثر به أو تتلمذ على فكره أو غرف شيئاً من فكره!!

الحلّاج

وتجد شيئاً من فكر المعتزلة في فكر الحسين بن منصور الحلّاج الذي صُلب عام 309هـ/ 922م على نهر دجلة إثر قصائده المتسائلة في الكون والله والخليقة تلك القصائد التي أدت به إلى المشنقة.. فكر العقيدة أم فكر القصيدة... عقل العقيدة... أم عقل القصيدة أم جرح الكلمة... تشرنقت حول رقبته وشنقته وتركته معلقاً على ضفة نهر دجلة تتخاطفه مخالب الطيور الجارحة ومناسرها..

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بَدَنا
نحن مذ كنا على عهد الهوى نضرب الأمثال للناس بنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

تماهي الذات الإلهية في الذات البشرية في تكوين عقل المخلوق في عقل الخالق... إذ يتسامى العقل في ذات العقل الإلهي يشكل مكابدة العقل المعتزلي في اكتشاف حقيقة الله، لم يمح الزمن الحلّاج ولم يمح الزمن فكر المعتزلة وعقلها الذي ما برح حتى يومنا هذا يلوح عقلاً ويومئ فكراً وثقافة وأدباً وإبداعاً وشعراً في الوعي وعلى بياض القرطاس!!

فالشاعر الفذ صلاح عبدالصبور في مأساة الحلّاج يقول:

الحارس: أدخل يا أعدى أعداء الله.

الحلّاج: ليسامحك الله فقد أعطيت الحلّاج المسكين أعلى من قدره.

الحارس: أدخل لا تكثر في القول ولتجلس بين رفيقيك..

الحلّاج: يا صاحب هذا البيت هب ضيفك نوراً حتى يكشف موضع قدميه أو كحل بسنا ذاتك عينيه..

الحلّاج: نوراً يا صاحب هذا البيت..

وقد احتج عمر الخيام على فقهاء الدين الذين استحلوا دماء الحلّاج والسهروردي وعين القضاة الهمداني:

نحن يا مفتي الورى منك أدرى   لم تُزِل عقلنا مدى السُّكر راحُ
أنت تحسو دم الأنام ونحسو   دَمَ كرمٍ فأيُّنا السفّاحُ

وعن أبي الحسن علي بن أحمد بن مردويه قال: رأيت الحلّاج في سوق القطيعة ببغداد باكياً يصيح أيها الناس أغيثوني عن الله ثلاث مرات فإنه اختطفني مني وليس يردّني عليّ ولا أطيق مراعاة تلك الحضرة وأخاف الهجران فأكون غائباً محروماً والويل لمن يغيب بعد الحضور ويهجر بعد الوصل.. فبكى الناس لبكائه حتى بلغ عتبة مسجد فوقف على بابه وأخذ في كلام فهم الناس بعضه وأشكل عليهم بعضه فكان ما فهمه الناس أنه قال: أيها الناس إنه يحدث الخلق تلطفاً فيتجلى

لهم ثم يستتر عنهم تربية لهم فلولا تجليه لكفروا جملة.. ولولا ستره لفُتنوا جميعاً فلا يديم عليهم إحدى الحالتين لكني ليس يستتر عني لحظة فأستريح حتى أستهلك ناسوتي في لاهوته ويتلاشى جسمي في أنوار ذاته فلا عين لي ولا أثر ولا وجه ولا خبر!!

الـسهروردي

يجسد السهروردي روح الحلّاج لأن في روحيهما نغمة روحية فكرية شعرية واحدة، وقد بدأ السهروردي حياته في دوائر تأثيرات المعتزلة فالمتصوفة، في تصوفهم حومٌ من شذرات فكرية تلامس شيئاً في محيطات أفكار المعتزلة!! فالعقول تتجاذب في جاذبية كجاذبية الأرض..

لقد بدأ السهروردي حياته الروحية بشذرات من روح الحلّاج في توحيد روح العقل في روح النفس صعوداً حتى روح الله...

لأنوار نور النور في الخلق أنوار   وللسر في سر المسرين أسرار

وكان السهروردي يستل نسغ ميلوديا نغم أشعاره طوال عمر حياته من روح النغم الحلّاجي ذاته.. لصلته الروحية العميقة بروح الحلّاج صلة ترابط في تشابه مسار الوجود في الحياة: «كما تتحد في توقعاتهم وفي توثبهم المشترك سعياً وراء الموت، هذا الموت الذي تقبلوه مقدماً على أنه جزاء عادل عن هذا الكفر الذي فرض عليهم إيمانهم بميثاق التوحيد نفسه أن يتظاهروا به».

اقـتـلـونـي يـا ثـقـاتـي   إن فـي قـتـلـي حـيـاتـي
ومـمـاتـي فـي حـيـاتـي   وحـيـاتـي فـي مـمـاتـي

ومثلما صاح الحلّاج في وجه جلاديه صاح السهروردي في وجه جلاديه بالأبيات ذاتها!!

وهو ما تراه تناغماً توحيدياً عند الحلّاج وعند السهروردي:

هيكلي الجسم نوري الصميم صمدي الروح ديّان عليم
عاد بالروح إلى أربابها فبقى الهيكل في الترب الرميم

ويرى عبدالرحمن بدوي «أن مأساة رسالة رجل كالحلّاج أو السهروردي هي في أن رسالة الوحدانية المطلقة الكاملة لا يمكن أن تتم دون أن تجلب عليه التكفير.. ولا يظل مخلصاً مؤمناً إلا تحت مظاهر الكفر والجحود».

ويرى السهروردي في التوحد إثبات النفس.. وفي إثبات النفس شرك يناقض الوحدانية.. لكون الخالق هو الذي يوحد نفسه على لسان من يشاء من خلقه وليس المخلوق وفي ذلك تجريد عامل العقل والقلب على السواء في خصوصية التوحد.. في التوحد أم في (أين) التوحد... في الوجود أم في (أين) الوجود...

كل شيء في المكتوب... مكتوب وكل شيء في الوجود موجود (لا عابث ولا عبث في الوجود) إنه (الله) موجود في وجود الوجود... وفي ظاهر وباطن سفر الوجود وهو جلل حدث استوى قِدَمُ حدث قبل حدث الوجود... وكائن كون تكون سرمداً في كون الوجود... سرمدي الأبد في الأبد وفي أبد الآبدين... ماذا يمكن أن نقبض أمام هذا التشكل الكلامي الذي يفيض فيضاً صوفياً ـ معتزلياً مبهماً في

علم الكلام وفلسفة علم الكلام غير الريح... ريح علم فلسفة اللغة في الكلام!!

عندما تتجلى اللغة روحاً وتتجلى الروح لغة يصطخب كون اللغة روحاً في كون علم الكلام... وتصبح اللغة لغة روح تبحث عن المجهول في معنى المكتوب بالروح في الوجود وخارج الوجود.. فالروح لا يمكن الاقتراب منها إلا بلغة الروح... فأين الروح... وأين تروح الروح... وأين نروح؟!

أين الأين (أيها القادم من ناكُجا أباد) «ومن حيث أين لا أين».

فأكاد أرى السهروردي يبحث عن شيخه الحسن بن سالم في المكان الذي انطوى عليه «أي أن الكون والمكان قد زالا عنه» كما يشير عبدالرحمن بدوي صاحب كتاب (شخصيات قلقة في الإسلام) وأرى أن الروح تائهة تبحث عن الله (أين الله) وكما «تاهت» المعتزلة في العقل تاهت المتصوفة في الروح...

وأحسب أن الشذرات المعتزلية لدى السهروردي تتراءى لنا في التسوية لديه بين العقل والروح.. وفي الواقع العلمي والمعرفي أنه لا يمكن فصل القلب والروح عن العقل، فالعقل يجري فيهما جريان الماء في الجسد وهم يحسونه إلا أنهم يماهونه بلغة فلسفة الروح في علم الكلام..

أنت بين الشغاف والقلب تجري مثل جري الدموع من أجفانِ
وتحل الضمير جوف فؤادي كحلول الأرواح في الأبدانِ

والسهروردي يماهي القلب بالنفس، النفس «التي يسميها الحكماء بالنفس الناطقة والروح من النفس الذي نفحه الله في آدم فجعل منه نفساً حية». وقد جابه السهروردي تهمة الكفر التي وجهها ضده بعض الفقهاء في قوله: «إن الله يملك إن شاء أن يخلق نبياً.. ولما اعترضوه قال إن الله قادر على كل شيء.. فقالوا إلا على خلق نبي. فأجابهم السهروردي سائلاً: هل الاستحالة هنا مطلقة أو غير مطلقة؟! فقالوا له أنت كافر!!» وهو ما نأخذ من المصدر ذاته سابق الذكر»..

عمـــر الخـيّـــام

ولقد ازدهرت في دولة السلاجقة علوم الفلك والأدب والشعر وبرز الفلكي والشاعر عمر الخيام القادم من نيسابور إلى العاصمة أصفهان وكان عين رعاية الملك الذي أنشأ له مرصداً لمراقبة النجوم وكان يتأمل السماء المرصعة بالنجوم وينزل بها إلى الأرض يضع أفكاره في رباعيات وجدانية تلاحق المجهول وتصطفيه عقلاً لا نقلاً... وهو يخفي ما يعتقد ويظهر ما لا يعتقد حتى أن رباعياته شاعت عذوبتها على ألسنة الناس بين من يرفض رباعياته ويصفها ضمن الكفر والزندقة وبين من يُؤوّلها تأويلاً في علم كلام المعتزلة ويضعها في دوائرها الإيمانية وليس في دوائر الكفر والزندقة!! حتى تألق شاعراً متميزاً على مهنته العلمية في علم الفلك.. وعندما يسأله حاكم أصفهان عن الشعر يقول: أنا عالم فلك والشاعر عندي الفردوسي!!

وكانت الصراعات المذهبية والقبلية على أشدها وكان عمر الخيام واجهة الكفر والزندقة في رباعياته..

وقد انطلقت جموع الغوغائية التكفيرية بقيادة الحسن بن الصباح تزحف لحرق مرصد عمر الخيام ويهجمون على بيته ويقتلون (البي) الأكثر حباً إلى قلب عمر الخيام، لكن عمر الخيام كان خارج بيته برفقة

حبيبته عائشة فينجو من القتل هو وعائشة ويعود بها إلى مسقط رأسه في نيسابور يحمل أسفار رباعياته على ظهره!!

إلهي قل لي من خلا من خطيئة   وكيف تُرى عاش البريء من الذنب
إذا كنت تجزي الذنب مني بمثله   فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي؟

وأخرى:

لا عشت إلا بالغواني مغرماً   وعلى يدي تِبرُ المُدام الذائبُ
قالوا سيقبل منك ربك توبةً   لا الله قابلها ولا أنا تائبُ

وقوله في الاحتجاج على الفقهاء الذين استحلوا دماء الحلّاج والسهروردي وعين القضاة الهمذاني:

نحن يا مفتي الورى منك أدرى   لم تُزل عقلنا مدى السُّكر راحُ
أنت تحسو دم الأنام ونحسو   دم كرم فأينا السفّاحُ

وله في الشك:

ليس لهذا العالم ابتداء   يبدو ولا غاية ٌ وحدُ
لم أجد من يقول حقاً   من أين جئنا وأين نغدو

ويدرج البعض ـ لأغراض ـ هذه الرباعيات في رموز وإشارات معانٍ سامية لا يعرف أسرارها إلا الراسخون في هذه المدرسة الشعرية(!!!) ولم يعرف عن الخيام يوماً إلا سادراً في لهو الحياة وجني فرحة ثمرتها أكان في الخمر أم في خمر النساء وهو يماهي الخمر في النساء ويماهي النساء في الخمر، ولم يعرف عنه أنه يماهي الله في الكون كما يطيب للبعض أن يرتفع برباعياته في الذات الإلهية!!

ابن رشـــد

وكان يتأمل الفلسفة السقراطية متقلباً على جمرها.. جمرة جمرة وهو يقلبها في عالم ضجيج الفلسفة اليونانية!!

أهو الواقع المادي يُحرك العقل.. أم العقل يحرك الواقع المادي؟!

وكان الصراع في العقل بين صراع العقل الآخر... تجاه من يحرك من... من يحدد من.. من يخلق من... إذن فالقِدمُ لمن؟!

وكانت المادة... وكان العقل.. إذن: المادة أقدم من العقل... فالأولوية لها.. ولكن ما العقل؟! أليس العقل مادة... أليس العقل مادياً؟!

في البدء كان العقل مادة غير عاقلة... إلى أن تحول إلى مادة عاقلة، فالمادة ساكنة الشكل متحركة الجوهر شكلها ثابت وجوهرها متحرك وفي الواقع شكلها وجوهرها متحركان!!

وكان الفيلسوف الأندلسي ابن رشد يتنسم عبير سقراط بحثاً عن الحكمة والعدل والفضيلة!!

لكم هي طاغية جاذبية سقراط في حراك العقل لدى الكثيرين من فقهاء وأئمة المسلمين وعلمائهم منذ أولجت المعتزلة حراك العقل لأول مرة في تاريخ المسلمين.. وكان لحراك العقل تاريخه في التاريخ.

وفي العام 399 قبل الميلاد كان سقراط واقفاً أمام 500 قاض في مدينة أثينا لمحاكمته لعدم إيمانه بآلهة المدينة وقيامه بإفساد الشباب وكان سقراط يجوب الأسواق والطرقات يحدث الناس عن الحكمة والعدل والفضيلة وأعمال العقل بين الناس، وفي ذلك خروج على الناموس في الاخلال بنظام الكون.. وإن إعمال العقل لا شأن له بالبشر وكان عقابه أن يتجرع السم ويموت. ومنذ ذلك التاريخ أصبح من يفكر ومن يُعمل عقله في الكون كأنه يتجرع السم.... وفق مقولة أو عقيدة السلفية عندنا «أنت تفكر إذن أنت كافر».

وكان التاريخ منذ أن استوى في حياة الناس صراع أفكار تتجدد في الحياة من أجل الحياة، صراع موت من أجل الحياة... وحياة بلا موت... بلا ظلم بلا ظلام... حياة تستنير باستنارة العقول.. موت العقل يعني موت الحياة.. فالحياة عقول تكافح من أجل الحقيقة في الحياة!! الحياة تموت والعقل حي لا يموت في حياة أفكاره وقد أخذت المعتزلة شيئاً من فلسفة سقراط وتجرعت السم في عصف الحياة جرعة.. جرعة.. في نشر الحقيقة بطريقتها خلاف طريقة سقراط!!

وكان لابن رشد تأثير فلسفي في العالم الأوروبـي وله دور مرموق في ايصال الفكر الأرسطي والفلسفي إلى العالم اللاتيني المعاصر.. وكان فيلسوف قرطبة الكبير ابن رشد يحرك إزميل عقله في مباضع بحوث وكتابات أرسطو ويشرحها ويُعلق عليها.. وكان لجهود ابن رشد تأثيرات واسعة في عدد كبير من المفكرين في نشر

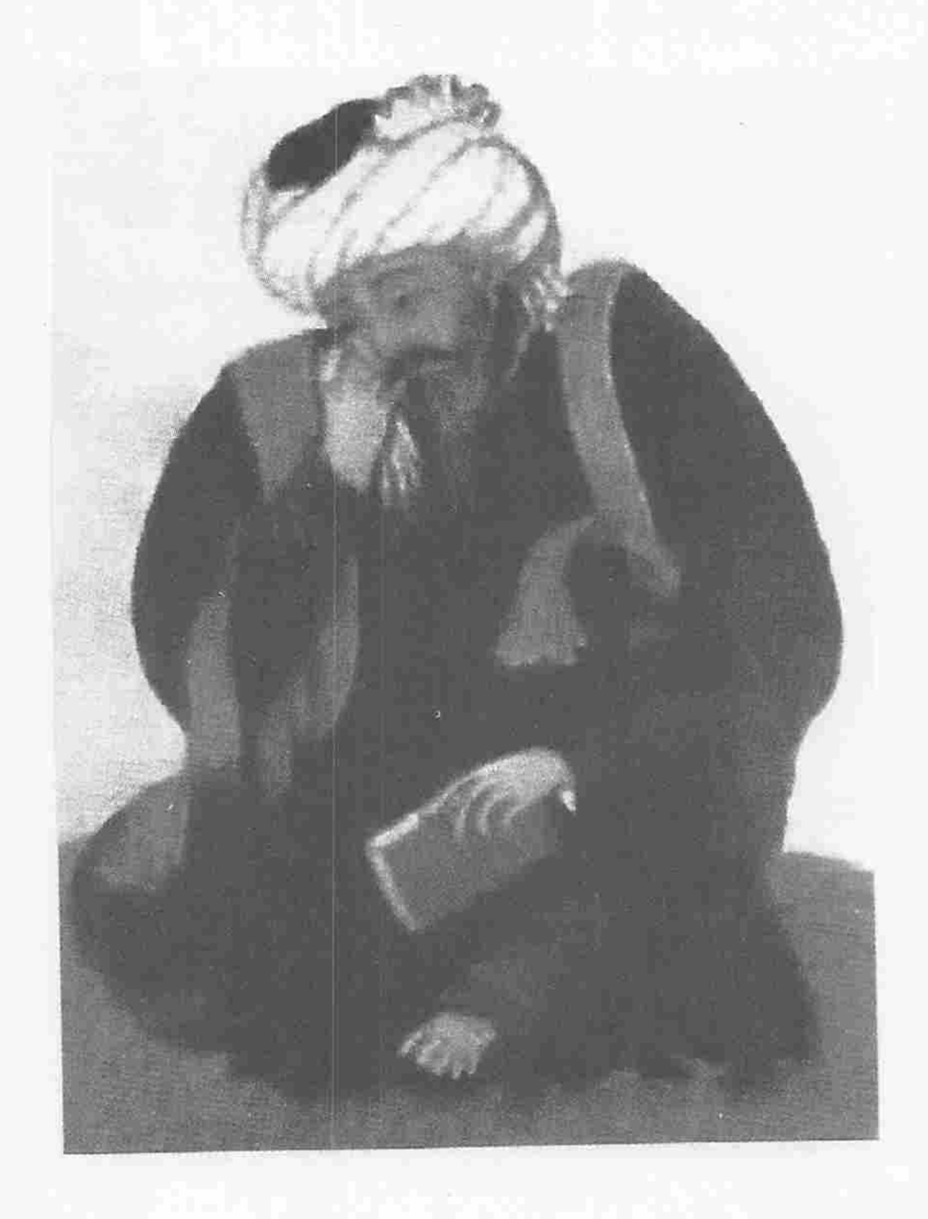
الفكر الأرسطي وتفعيل نزعاته الإنسانية ضد صنمية اللاهوت في الدين وأزلية طاغوتيته العبادية وقد رفعت الكنيسة الكاثوليكية عدوانية مناهضة ومحاربة وتحريم أفكاره ومقاطعة تعاليمه. وكان القديس توما الأكويني يشن هجوماً عنيفاً ضد الفكر الرشدي وضد بعض المفكرين الأوروبيين الذين تأثروا بفكر ابن رشد ومخاطر انبعاث العقلانية الإغريقية ونزعتها الإنسانية التي تترجم في شروحات معادية للفكر الكنسي المحافظ. وكان ابن رشد يعتبر في تلك الحقبة باعثاً حقيقياً للأفكار اليونانية والفلسفة الأرسطية بشكل خاص.

ابن سيـــنا

وإذ كان لابن سينا أثر في الثقافة الفارسية شأنه شأن الخيام والسهروردي وابن المقفع وخلافهم، فإن الثقافة الفارسية والثقافة العربية الإسلامية تمازجتا وتلاقحتا في نهوض ثقافي وفكري تنمّط في تاريخ الثقافتين الفارسية والعربية، فالثقافات بطبيعة تثاقفها أخذ وعطاء ثقافي وفكري في التاريخ!!

ولا شك فإن ابن سينا يشكل جزءاً له أهميته الفكرية والثقافية في التراث الفكري العربي. ولا ينبغي في هذه العجالة من الاختزال العابر التطرق إلى الآثار العظيمة التي أبدعها عقل ابن سينا فيما أضاف عقلاً مستنيراً مبدعاً متحرراً من عبث النقول في اللامعقول والأخذ بيدنا عقلاً في المعقول، فقد كان ابن سينا لا يمكن تجريده عقلاً وفكراً من شذرات الفكر المعتزلي، إذ كانت الدولة العباسية آنذاك حوم ضجيج لا يكل ولا يكف فكراً وثقافة ومعرفة في حرية علم الكلام أو علم «اللاهوت العربي والإسلامي».

والمعلم ابن سينا له نظرة فلسفية في حقيقة الخالق والخلق، فهو لا يفصل بينهما وإنما يوحدهما في وحدة الحياة، فالحياة إذا تباينت أشكالهـا فإنهـا تتوحـد في أصل مـاديتها.. فلا وجود بدون واجد ولا



خلق بدون خالق. «وإن الله مضطر أن يخلق الوجود.. أي ليس للخالق وجود من غير أن يكون معه شيء مخلوق وليس للطبيعة (الإلهية) إلا أن تحقق كل ما في طاقتها من قدرة على الخلق والإيجاد».

والعلم الحديث يُلاحظ عقلاً أن المادة في وجود أبدي وأزلي خالد. تنبثق منها وعبرها جميع المكونات المادية والفكرية في الحياة، وحدة وجود الحياة المادي في معارف متنوعاتها إثر سلسلة من التوالد عقلاً وثقافة ولغة وحضارة تكونت وكونت في علاقتها الجدلية.. فوحدة الحياة في ماديتها وفي جدليتها والمادة لا يمكن فصلها عن جدليتها!! ونرى أن ابن سينا في تأملاته الفلسفية والصوفية التي تخالط في تأملاتها عقلاً عقل المعتزلة الذي يأخذ بِقِدَم الخالق في جدل الخلق وتجريده من جدل المخلوق وفي عزل جدل مكونات الخالق عن جدل مكونات المخلوق!!

إن تلاقح العقول والحضارات والثقافات العربية والفارسية دفع إلى التفكير في خلق القرآن وهو الذي نزل على الرسول بلسان عربي ـ كما ترى المعتزلة ـ إثر وجود كلمات فارسية وحبشية وخلافها، مثل: (الطاغوت) و(أواه) و(طوى) و(شطر) و(قسورة) و(العرم) هذا عند الأحباش وما عرف عند الفرس (سندس) و(استبرق) و(أباريق) و(كافور) و(مرجان) و(سـرادق) و(سلسبيل)... وغيرها من لغة الروم (قنطار) و(قسطاس) و(رقيم) ومن السريان (اليم) و(هيت

لك) و(الأسفار) و(سريّا) ومن العبرية (عليون) و(سجّين) و(مرقوم) و(أرائك) و(تسنيم) والكثير الكثير من الأسماء والكلمات الأعجمية التي درجت في لسان لغة عربية القرآن، وهو ما أعطى مجالاً للفكر المعتزلي أن يستنبط خلق القرآن وإلا كما قالت المعتزلة: ليس من الحكمة في شيء إلا ما يدل على أن القرآن مخلوق في زنته العقلية المعقولة والمنقولة!!

الخاتمة

في القِدَمِ كان العقل... كما في البدء كان الكلمة... وكان الله... وكانت كلمة الله... وكانت الحياة منذ القدم تتوالد سرمدية عقول ولغة ومعاني كلمات... وكان العقل المحرك لكل العقول والمنضّد لكل الكلمات.. فالعقول تتوالد أفكاراً في لغة كلمات بحثاً عن الحقيقة التي هي في واقعها لم تكن إلا حقيقة قدم عقل... فالحجر على الحقيقة حجر على العقل... والحجر على العقل حجر على الحقيقة... فويل لأمة تحجر على عقول أبنائها وتُردي بهم في تهلكة الجهل ودياجير الظلام...

العقول تنمو وتزدهر بالعلوم والمعارف تتوالد عقولاً في إثراء العقول الأخرى... وتتنابت في سرمدية الحياة أيضاً.. وأيضاً.. عقول تنير العقول وتستنير من العقول: نورٌ على نور، سلاماً هي حتى مطلع فجر الحرية.. وتُنقّي الأديان من رواسب الميثولوجيا في التاريخ!!

وعندما يتعارض البحث الديني مع البحث العلمي يؤخذ بالبحث العلمي كونه بحثاً علمياً ارتبط بالعقل وليس خارجاً عن العقل... من واقع أن «العلم من اختصاص القوة العاقلة والدين من اختصاص القوة

الشاعرة» كما جاء على لسان القاضي محمد نور رئيس نيابة مصر في 3 مارس/ آذار 1927 في محاكمة الدكتور طـه حسين في (الشعر الجاهلي)؛ وقد وقف القاضي محمد نور بجانب طه حسين قائلاً: «إن له فضلاً لا يُنكر في سلوكه طريقاً جديداً للبحث حذا فيه حذو العلماء من الغربيين.. ويسجل أيضاً أن حرية الفكر تؤدي إلى نتائج عظيمة وتُثري الحياة بكل معانيها». وقد نطق القاضي محمد نور ببراءة الدكتور طـه حسين وكانت علامة ـ تاريخية ـ فارقة في انتصار العقل على الجهل في تاريخنا العربي .

إن الحقبة التاريخية المعاصرة التي نعيش دهشة نذر تحديات أحداثها... تشدنا إلى تكريس العقل على النقل وإخضاع اللاهوت بكامل خصائصه الميتافيزيقية إلى الإنسانية الناسوتية التقدمية!!

فإذا تعارضت قيم اللاهوت مع قيم الناسوت.. فيتم الأخذ بقيم الناسوت وإلغاء قيم اللاهوت تماماً حسب قاعدة الشرع الفقهية: إذا تعارضت مصالح الناس بقاعدة الشرع الفقهية فيؤخذ بمصلحة الناس أخذاً كاملاً ورفض قاعدة الشرع الفقهية رفضاً كاملاً...

إن خصائص اللاهوت في النقل... وان خصائص الناسوت في العقل...

فاللاهوت هو عقل الطوباوية المثالية... الناسوت هو عقل الواقعية المادية... ومنذ فجر ظهور الفلسفة كانت ضجة اللاهوت والناسوت تتبوأ موقفاً خلافياً في المسائل الفلسفية وما يتمثل في (الأولوية) للمادة

أم للفكر.. وهو ما أدى إلى انعزال النقل في اللاهوت وانعزال العقل في الناسوت، وكان من الضرورة التاريخية أنسنة اللاهوت بالناسوت عقلاً، والعمل على تجسيد قيم الدين في قيم الحداثة.. وهو ما يعني الانتقال من واقع حاكمية النقل في اللاهوت إلى واقع حاكمية العقل في الناسوت بتبني:

الفلسفة الإنسانية التي مجدت الإنسان وجعلته خالقاً في أفعاله وأفكاره وقيمه بالاعتراف بسيادة العقل على النقل في الفكر النقدي.. كما تُهاجسنا المعتزلة عقلاً... والعمل على قبول العلمانية ومساندتها كقيمة إنسانية في الحداثة والتحديث وممارستها بنزاهة القول فعلاً .. والفعل قولاً ودفع وعي التعصب النقلي الديني الأناني والذاتي خارج الوعي العقلي الديني الناكر لذاته حضارياً والمنفتح على جميع الأديان في عملية وعي جراحية فكرية في نسخ تراث النقل البائد بتراث العقل المعاصر الحديث.. وذلك في الابتعاد عن عدمية المفاهيم البائدة التي تروج أن ديننا دين الحق... ونحن على الدين الأحق ولتذهب مليارات البشرية من الديانات الأخرى إلى مزبلة التاريخ وإلى سعير جهنم وبئس المصير.. أو ما يتوثق عندنا في الكتب المدرسية البائدة « أنه إذا أقمت في دار الكفر للتعلم أو التطبب أو التجارة فأقم بينهم وأنت تضمر العداوة لهم».

أمن العقل تكريس مثل هذه النقول البائدة ومئات الألوف من

السعوديين في دول الغرب.. إما للدراسة وإما للعلاج وإما للتجارة.. فأي بال يطمئن للآخر: فلا بالهم يطمئن لبالنا.. ولا بالنا يطمئن لبالهم.. ونفوسنا مكنوزة بوعي ثقافة البغضاء والكراهية للآخر الكافر...

إن ضرورة تقدم مجتمعاتنا العربية على دروب الإنسانية الصاعدة وإلى مجد الحضارة هي ضرورة الانتقال من حاكمية النقل إلى حاكمية العقل وتحديد مفاهيم النقول وتشذيبها دون نفيها بحيث لا تتضارب مع تقدم الحياة وفق مفاهيم العقل التي لا تتعارض مع المواثيق الإنسانية في الحقوق والواجبات على صعيد العالم!!

إن تكريس مفاهيم الدين في استيعاب حقوق الإنسان في الديمقراطية والعلمانية وتشريعها دستورياً وثقافياً في مجتمعاتنا العربية واقع يحد من مفاهيم الغلو والتطرف والعنف والإرهاب الديني والمذهبي وذلك بالعمل على تجسيد المفاهيم الدينية والفقهية والشرعية بالمبادئ السامية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان والوثائق الأخرى المتعلقة به.. والتي أصبحت شرعة الإنسانية الحرة على وجه الأرض وفي مساواة المرأة وضد التمييز في الحقوق والواجبات في المجتمع بدون استثناء والعمل على حماية الأقليات العرقية والدينية والمذهبية.. وهذا لن يتحقق إلا بحماية العقل وتحريره من الجهل وسلطة النقل وإعطائه الحرية الكاملة في الإرادة الإنسانية في البحث واكتشاف المجهول في الكون وفي المعتقدات الدينية وسواها!!

المصادر والمراجع

- موسوعة عباقرة الإسلام، دكتور رحاب خضر عكاوي.
- مجلة (رحاب المعرفة) التونسية.
- رسالة الغفران، أبو العلاء المعري.
- معتزلة البصرة وبغداد، رشيد خيون.
- كشف الأسرار، الإمام الخميني.
- باب ذكر المعتزلة وطبقاتهم، تحقيق توما آرنلد ـ أحمدي بن يحيى المرتضى.
- المعتزلة – ثورة الفكر الإسلامي الحر، الأب سهيل قاشا.
- المعتزلة، القاضي الدكتور أحمد الحريشي.
- النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، حسين مروة.
- هكذا تكلم ابن عربي، نصر حامد أبو زيد.
- من تاريخ الإلحاد في الإسلام، تأليف وترجمة عبدالرحمن بدوي.
- الملل والنحل للشهرستاني.
- المعتزلة في بغداد وأثرهم في الحياة الفكرية والسياسية، أحمد شوقي ابراهيم المعرجي.
- تاريخ الجهمية والمعتزلة، جمال الدين القاسمي.

- شخصيات غير قلقة في الإسلام، هادي العلوي.
- موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، الدكتور عبدالرحمن بدوي.
- اللاهوت العربي، يوسف زيدان.
- الشخصية المحمدية، معروف الرصافي.

كتب صدرت للمؤلف

1 ـ مطارحات فكرية ـ الجزء الأول، 1960.

2 ـ مطارحات فكرية ـ الجزء الثاني، دار قرطاس، الكويت، 2001.

3 ـ قضايا سعودية، 1960.

4 ـ بصمات وجدانية، دار قرطاس، الكويت، 2001.

5 ـ موج البحر، دار قرطاس، الكويت، 2001.

6 ـ في الثقافة والنقد، دار قرطاس، الكويت، 2001.

7 ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الأول، دار قرطاس، الكويت، 2001.

8 ـ العلمانية طريق التقدم، دار قرطاس، الكويت، 2004.

9 ـ عبدالعزيز المعمَّر.. ذاكرة الوطن، دار قرطاس، الكويت، 2005.

10 ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الثاني، دار قرطاس، الكويت، 2005.

11 ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الثالث، دار قرطاس، الكويت، 2007.

12 ـ ما هي الليبرالية، دار قرطاس، الكويت، 2007.

13 ـ الإرهاب في جزيرة العرب، دار الفارابي، 2008.

14 ـ إني أشم رائحة مريم، الجزء الأول، ط1، دار قرطاس، الكويت، 2002، ط2، دار الفارابي، 2010.

15 ـ إني أشم رائحة مريم، الجزء الثاني، ط1، دار الفارابي، 2010.

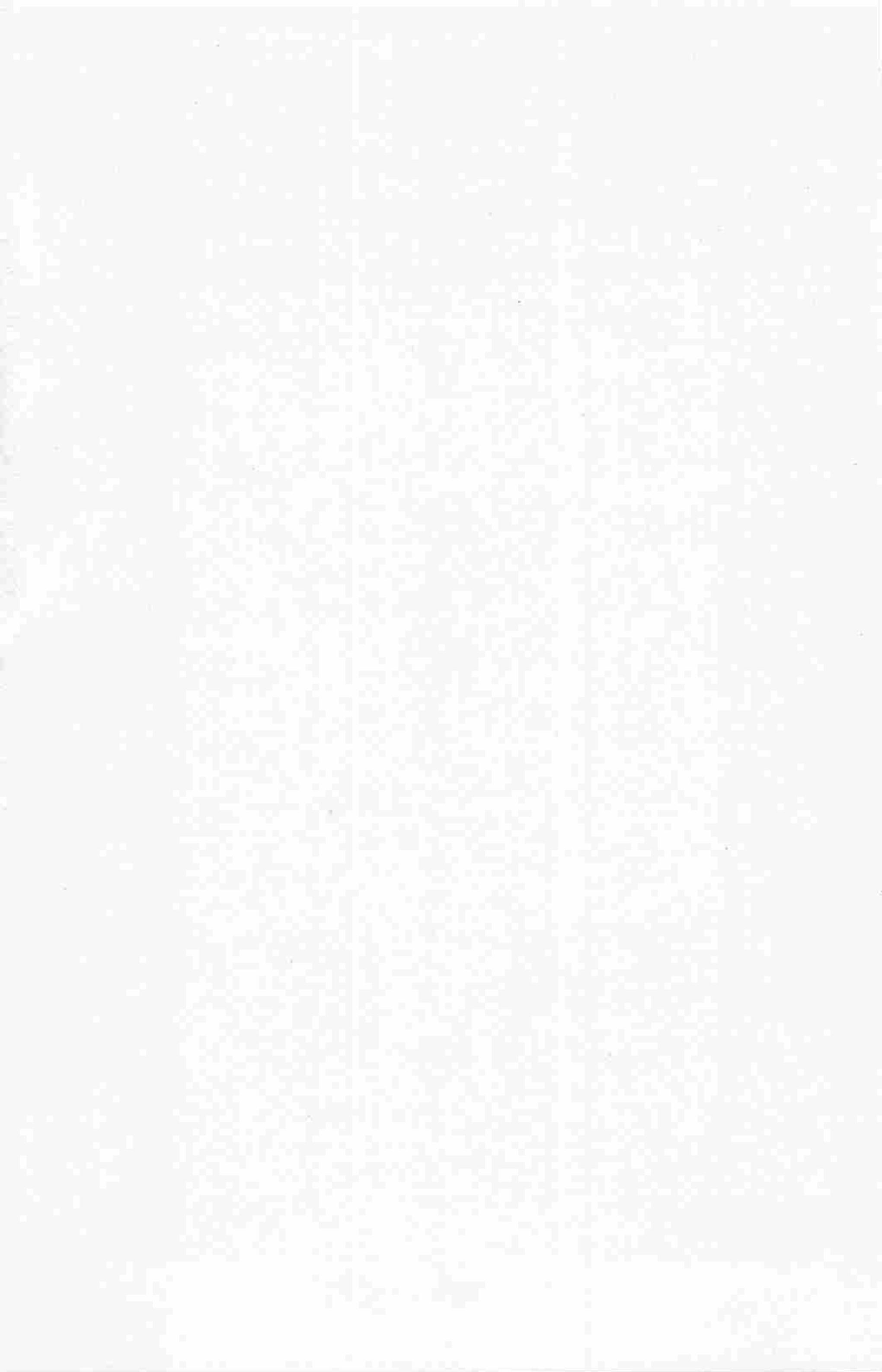
16 ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الرابع، دار الفارابي، 2011.

17 ـ المساءلة، دار الفاربي، 2011.

18 ـ في الثقافة والنقد، دار الفاربي، 2012.

19 ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الخامس، دار الفارابي، 2013.

المحتويات



وقبـل أن يحلّ الفكر المعتزلي تاريخياً بيننا، كانت السـلطة المطلقة للنقل.. وكان العقل يعيش على هامش كل ما هو منقول!! ويعود الفضل تاريخيـاً للمعتزلـة الذيـن أطلقوا العقـل الإسلامي مـن قمقم النقل وفتحوا أبواب نصوص الدين والدنيا على مصاريعها فكان أن تحررت نصوص العقـول من سلطة نصوص المنقـول، وأخذت ثوابته تتفكك شيئاً.. فشيئاً أمام حراك العقول!!

وحتـى يومنا هذا لا يـزال جدل الفكـر الثقافي بيـن المثقفين يأخذ مداه، ويحتل مساحة واسعة في حياتنا المادية والفكرية بين اللاهوت والناسوت في الدول الإسلامية قاطبة..

(المؤلف)

اسحاق الشيخ يعقوب

- **مواليد المملكة العربية السعودية العام 1927.**
- **أواخـر 1956 فـرّ إلـى البحريـن ومنها إلى لبنان وسـوريا حيث كتب في عدة صحف ومجلات في هذه البلدان.**
- **عام 1965 استقر في لبنان وسوريا، ونشر سلسلة دراسات.**
- **منـذ عام 1976، عاد إلى الوطن بشكل علني وانخرط في النشاط الثقافي والفكري والصحافي.**


ISBN 978-9953-71-986-3
9 789953 719863